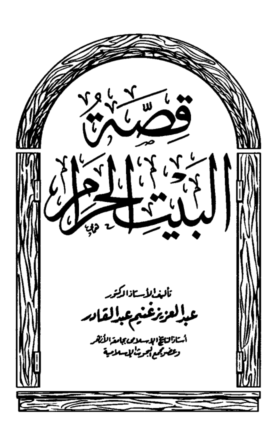


قصة البيت الحرام

تأليف الأستاذ الدكتور
عبد العزيز غنيم عبد القادر
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

السنة الثامنة والثلاثون - الكتاب الثامن عشر - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الأزهر الشريف
سلسلة البحوث الإسلامية



قصة
البيت الحرام
تأليف الأستاذ الدكتور
عبد العزيز غنيم عبد القادر
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر
وعضو مجمع البحوث الإسلامية



تقديم
لفضيلة الأستاذ الشيخ وفا حسن أبوعجور
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد ابن عبد الله أفضل من دعا إلى الله على بصيرة فهدى به الخلق إلى الحق وإلى صراط مستقيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. أما بعد: ـ

فهذا كتاب يحكى «قصة البيت الحرام» التى نقدمها إلى عامة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وهو وجبات روحية ووقائع متأنية فى تعقل وتبصر وقد سلك المؤلف فى هذا الكتاب منهجا فريداً مزج فيه بين المنهج العلمي والفقهى وكان حديثه فى إطار موضوعات اجتماعية ودينية وتاريخية لقيت هوى، وشفت علة وروت غلة، وأزالت شبهة، وألقت فى القلوب طمأنينة وسكينة.

ثم تعرض للأحداث والوقائع التى واكبت البيت الحرام منذ بناء الملائكة له وحتى سقوط الدولة الأموية فى المشرق العربى مارا بآدم، وإدريس، ونوح، وإبراهيم ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ الذى بوّأه الله مكانة.

ورفع سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل الأسس والقواعد منه وبين أن البيت العتيق منارة للملائكة وآدم بين الماء والطين يطوفون حوله، ويبتهلون عنده ويسبحون ويقدسون بين يديه ومن خلفه.

والمؤلف يستخرج من الأحداث التى يحكيها والوقائع التى يقصها العبر والعظات وتطهير الأنفس وتنقية الضمائر والأفئدة وعلى هذا المنهج تناول موقف عبد المطلب جد الرسول - ﷺ - من البيت الحرام عندما جاء إليه أبرهة ملك الحبشة متوعداً لهدمه فقال له: (أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه) فأوضح أن عبدالمطلب لم يكن سلبياً فى حديثه إلى أبرهة، وإنما كان إيجابياً يقول الحق من غير وجل ولا خوف وأخبر الملك بأن المعركة بينه وبين ربه وليست بينه وبين ملك مثله وإذا أوقد نارها وأدار رحاها فإن الدائرة لن تدور إلا عليه.

ولم يكتف المؤلف بهذا فحسب ولكنه لم يترك حدثاً هاماً ولا واقعة ذات بال إلا وعرضها فى يسر وسهولة فى حياة النبى ﷺ وحياة خلفائه الراشدين وبنى أمية.

والكتاب سهل فى عباراته سلس فى أسلوبه واضح فى معناه جذاب لقرائه مغرى بمطالعته.

ولما كان هذا المؤلف القيم قد نفذت نسخه من أيدى القراء كان هذا مدعاة لإعادة طبعه من جديد لما فيه من النفع الكثير والخير العميم والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب كل من التمس علماً، وأراد خيراً وأن يجزى مؤلفه كل خير بما قدم للإسلام والمسلمين.

والله الهادى إلى سواء السبيل.

الأمين العام

لمجمع البحوث الإسلامية

السيد وفا حسن أبو عجور

مقدمة

يرى بعض الباحثين، أن عبادة الإنسان لله الواحد موغلة فى القدم، ضاربة فى أعماق الزمن، ومع هذا فهى ليست العبادة الأولى، فقد سبقتها عبادة الشمس، والقمر، والنجم، والشجر، وما إليها من قوى الكون ومظاهر الطبيعة، وحجتهم فى هذا هى أن المحسوسات أسبق وجودًا فى فكر الإنسان من المعقولات، وأن المركبات أقرب إدراكًا فى عقله من البسائط، وهذا هو السر فى أن الفكر الإنسانى لم يرق إلى ما وراء الطبيعة، من العلل الأولى للكون إلا بعد أحقاب طويلة، قضاها فى إطار المادة، وبين الموجودات المحسوسة والمشاهدة.

ومع وجاهة هذا الرأى وكثرة المؤيدين له، والمبرهنين على صحته، فإننى لا أرى فى نفسى ميلاً إليه، ولا رغبة فى اعتناقه ومؤازرة أصحابه.

ذلك لأن القرآن الكريم قد سجل ما يخالفه، وهو أن توحيد الله تعالى، ونفى الشركاء عنه، قد كان هو العبادة الأولى للإنسان على ظهر هذا الكوكب، فإن آدم وهو أبو البشر دون خلاف، قد كان موحدًا، يعبد الله ولا يجعل له ندًا فى أرضه ولا فى سمائه، بل إنه كان نبيًا يلقن أبناءه هذه العبادة، ويبرهن لهم على أنها هى الحق، وأن ما عداها هو الباطل.

وقد عاش آدم وذريته أزماناً طويلة، وليست لهم عبادة سوى توحيد الله تعالى وتمجيده وتنزيهه عن أن يكون له شبيه أو نظير.

ولعل هذه الفترة هي التي عناها الله تعالى في قوله: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [(١)].

وواضح من هذه الآية الكريمة، أن الناس كانوا أمة واحدة، يعبدون الله وينفذون كل ما يحبه من إتيان الخير، واجتناب الشر، وإيثار الفضيلة، واحتقار الرذيلة، وأن هذه الأحوال الطيبة قد كانت هي المواكبة للمجتمع، والمؤثرة في أفراده وطوائفه، غير أن ذلك لم يستمر، فقد أخذ الانحراف يعرف طريقه نحو الناس، وراحت المفاسد والشرور تعمل عملها في توهينهم وإضعافهم.

وظل هذا الشر ينمو ويتفاقم حتى اشتدت الحاجة إلى الرسل الهادين، والأنبياء المرشدين، فأرسل الله إليهم من قبله من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

---

(١) سورة البقرة . الآية : ٢١٣ .

ومازال هؤلاء الرسل والأنبياء، ومازالت الكتب الموحاة إليهم، والأسفار المنزلة عليهم، وما زالت هذه وتلك حتى هدى الله الذين آمنوا إلى الحق، وبقى غيرهم يرتطمون فى المعاصى، ويتلجلجون فى الخطايا والآثام.

ولا جدال فيما تدل عليه هذه الآية الكريمة، وما يدل عليه أشباهها ونظائرها من أن عبادة الله الواحد قد كانت هى السابقة على ما عداها، وهى المقدمة على ما سواها.

وإذا كان آدم هو أول من عبد الله تعالى على ظهر هذا الكوكب، فإن الكعبة هى أول بيت وضع للناس، ليذكروا فيه ربهم، ويقدسوا إلـههم، الذى خلق كل شيء، وعلم كل شيء، والذى أعد الجنة ثوابًا لمن أطاعه، والنار عقابًا لمن خالفه وصد عنه.

وقد قام البيت الحرام منذ بُنى حتى اليوم بأعظم دور فى تزكية الأنفس، وتنقية الأفئدة، ودفع الأرواح إلى طاعة الله، فلا يفقدها حيث أمرها، ولا يراها حيث نهاها.

فما أعظم البيت الحرام، وما أعلى قدره، إنه نور الله فى أرضه، ونعمته على خلقه، وهو الواحة التى يفر إليها عباده فتزكوا نفوسهم وتطهر قلوبهم، وتمحى خطاياهم، وتغفر آثامهم، ويصبحون أهلاً لرحمات الله تعالى ونفحاته، ومحلاً لأسراره وفيوضاته، يدعونه فيجيبهم، ويسألونه فيعطيهم، ويستنصرونه فينصرهم، ويستعينونه فيعينهم.

وقد كان هذا البيت العتيق منارة للملائكة، وآدم بين الماء والطين يطوفون حوله، ويبتهلون عنده، ويسبحون ويقدسون بين يديه ومن خلفه، ولما خُلق آدم وأُهبط إلى هذه الدنيا نسج هو وذريته على منوال الملائكة في تعظيم هذا البيت وتكريمه، واقتفوا آثارهم في التضرع عنده، والدعاء بين يديه.

وراحت القرون تتوالى قرناً بعد قرن، وأخذت الأحقاب تتتالى حقبة إثر حقبة، وعبادة الله تعالى مستمرة حيال هذا البيت لا تنقطع، وتمجيده دائب حوله لا يفتر ولا يضعف.

وجاء إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعد هذا البيت، وأعادا بناءه وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وأمر الله إبراهيم فدعا إلى القصد إليه، ونادى الناس كافة لحجه، وأداء المناسك والشعائر حوله.

وعلى الرغم من الوادي المقفر الذي كان فيه، والصحاري الموحشة التي كانت تكتنفه وتحيط به، فإن الناس قد هرعوا إليه من كل فج، وتسابقوا إلى زيارته من كل أوب ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾[1].

ولو أتيح لك أن تراهم وقد أقبلوا إليه ألوفاً ألوفاً، صفوفاً صفوفاً، قد تجردت من المخيط أجسامهم، وخلت من الزينة

(١) سورة الحج. الآية: ٢٨.

أبدانهم، عارية رءوسهم سالة قلوبهم، شعثاً غبراً، جفت من الدعاء حلوقهم، ويبست من الاستغفار ألسنتهم، يهتفون على اختلاف ألوانهم، واختلاف أجناسهم، واختلاف أوطانهم وبيئاتهم «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

لو أتيح لك تراهم على هذه الحال، لا فرق بين كبير وصغير، ولا بين غنى وفقير، ولا بين ملك ومملوك ولا بين حاكم ومحكوم، الكل قد أدار للدنيا ظهره، وأسلم لله وجهه، وانحنت رأسه للحى القيوم، لا يسأل غيره ولا يخشى سواه، ولا يذعن لقوة فى الأرض ولا فى السماء غير قوته، ولا يخضع لسلطان ولا جبروت سوى سلطانه وجبروته. ولو رأت عيناك هذا الجمع الذى يموج موج البحر، ويهدر هدير السيل لتدفقت مدامعك وانهمرت عبراتك، وملأ أعماق نفسك الخوف من الله والخشية من بطشه، وخيل إليك أن الدنيا قد انقضت، وأن الساعة قد جاءت، وذكرت قوله تعالى: ﴿فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر * خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾[1].

ورحت تطلب النجاة، ولا نجاة إلا لمن حسن عمله، وسلم قلبه، وطابق سره جهره، وباطنه ظاهره.

(١) سورة القمر. الآيات: ٦-٨.

وَأشهد لقد حضرت هذه المواقف وأنا أؤدى فريضة الحج، فأثارت فى قلبى، وأثارت مشاعرى وخواطرى، وتمنيت أن أحكى للناس قصة البيت العتيق، منذ الوقت الذى بنى فيه، حتى هذا اليوم، وأروى لهم الأحداث التى وقعت فيه، وفى الأماكن الدائرة حوله، وكيف أن الله سبحانه حفظه من كل كيد، ووقاه من كل تآمر، وكيف أن الذين غزوه من الملوك والجبابرة قد بدد الله شملهم، وفض جمعهم، ولم يُمكِّن أحداً منهم من أن يقضى من هذا البيت وطراً، ولا أن يحقق منه هدفاً، وكيف أن الذين هابوه وكرموه قد بارك الله فيهم، وأتم نعمته عليهم، فأمنهم بعد خوف، وأشبعهم بعد ثغب، وجعلهم سادة الناس وقادتهم، ورؤساءهم وحكامهم.

وقد حان الوقت وسنحت الفرصة، وكتبت الجزء الأول من هذه القصة، وتناولت فيه الظروف والصروف التى واكبت هذا البيت منذ بنته الملائكة، حتى نهاية دولة بنى أمية، مؤثراً دقة العبارة، ولطف الإشارة، مبتعداً عن الإيجاز المخل، والإطناب الممل، واصلاً بين الأحداث بعضها ببعض، بخيط تاريخى رفيع يدنى بعضها من بعض، ويقرب بعضها إلى بعض، فى نسق لطيف، ونظام ظريف فإن أك قد وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى فحسبى صفاء النية، وصدق الهدف، ونبل المقصد.

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المؤلف

الفصل الأول

البيت الحرام
قبل جرهم وخزاعة

***

بسم الله الرحمن الرحيم

« بين الملائكة والطوفان »

بناء الملائكة للبيت الحرام: -

لم يكن آدم هو أول من سكن هذه الأرض، وإنما سبقه إليها شعوب شتى، وأمم مختلفة، هكذا يقول المفسرون[1]، ويقولون كذلك: إن الشعوب وهذه الأمم قد بعث إليها من الملائكة من استأصل شأفتها، وأبطل أحدوثتها، وجعلها أحاديث، ومزقها كل ممزق[2].

ولما خلصت الأرض من شرها، وطهرت من جرمها وإثمها، جمع الله الملائكة فى صعيد واحد وقال لهم «إنى جاعل فى الأرض خليفة» وظن الملائكة أن هذا الخليفة سيقتفى آثار أسلافه، وينسج على منوالهم، فقالوا: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك». وأجابهم المولى سبحانه: ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾[3].

ولكى يكشف تعجلهم فى الفهم وتسرعهم فى الحكم فقد عقد اختباراً نجح فيه آدم، وأخفقت الملائكة، وقد سجل القرآن الكريم هذا الحدث فقال:

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١ / ٧٠ ط عيسى الحلبى بمصر.

(٢) نفس المصدر السابق ١ / ٧٠.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ١ / ٨٩ دار المعارف بمصر ط ٦ تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم.

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (١).

وهز هذا العتاب القاسى نفوس الملائكة، وزلزل قلوبهم، فاشتد بكاؤهم، وعظم نشيجهم، وراحوا يطوفون حول العرش نادمين آسفين، يسألون الله الصفح، ويلتمسون منه المغفرة ويبدون من التذلل والتخشع ما لا سبيل إلى وصفه، ولا إلى الإفصاح عنه وظلوا هكذا حتى مسهم لطف الله، ووسعتهم رحمته (٢)، وناداهم مولاهم إنى قد أقلت عثرتكم، ورفعت كبوتكم، وطهرتكم مما كان منكم، وما حدث من جرأتكم واعتراضكم.

وأمرهم سبحانه أن يبنوا له بيتا، ويطوفون حوله كما كانوا يطوفون حول العرش (٣). وامتثل الملائكة للأمر، وبنوا له بيتا فى السماء السابعة، أو السادسة، وسموه البيت المعمور، وهذا البيت هو المذكور فى سورة الطور (٤) ﴿ والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور ﴾ (٥).

---

(١) سورة البقرة . الآيات : ٣١ - ٣٣.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ٣ المطبعة الماجدية - مكة المكرمة سنة ١٣٥٢هـ تصحيح : رشدى الصالح ملحس.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٣٩.

(٥) سورة الطور . الآيات : ١ - ٤.

ويقول المفسرون: إن الملائكة كانوا يحجون هذا البيت ويقدسون الله ويحمدونه عنده، وإنه منذ بنى وسبعون ألف ملك يطوفون حوله فى كل يوم حتى تقوم الساعة [1]، وعلى غرار البيت المعمور وتحته مباشرة بنت الملائكة البيت الحرام فى الأرض [2]، وكان قبل هبوط آدم إليها بألفى سنة [3].

بناء آدم للبيت الحرام: ـ

وعصى آدم ربه وأكل من الشجرة التى كان قد نهاه عن القرب منها، فأخرجه سبحانه من الجنة وأنزله إلى هذه الدنيا [4]، ولما استقرت قدمه عليها استوحش منها، واشتد ندمه على ما كان منه فى حق الله وفى حق نفسه، وراح يبكى وينتحب حتى تاب عليه ربه، وعفا عما كان منه، من ظلمه لنفسه، وتفريطه فى جانب خالقه[5] ونظر عليه السلام إلى الدنيا الواسعة من حوله، ولما لم ير أحداً فيها سواه قال: يارب أليس على ظهر هذه الأرض عامر يعبدك فيها غيرى؟.

فأوحى الله إليه: إنى سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدى ويقدسنى، وسأجعل فيها بيتا أختاره لنفسى، وأختصه بكرامتى، وأوثره على بيوت الأرض كلها باسمى، فأسميه بيتى وأنطقه بعظمتى[6] وأجاوره بحرماتى، وأجعله أحق بيوت الأرض كلها

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٣٩. (٢) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٤.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٢. (٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٠٦.
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٨١. (٦) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٣١.

وأولاها بذكرى وأضعه فى البقعة التى اخترت لنفسى[١]، فإنى اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض، وقبل ذلك قد كان بغيتى، فهو صفوتى من البيوت، ولست أسكنه، وليس ينبغى لى أن أسكن البيوت ولا ينبغى لها أن تسعنى، ولكن على كرسى الكبرياء والجبروت، وهو الذى استقل بعزتى، وعليه وضعت عظمتى وجلالى، وهنالك استقر قرارى[٢].

ثم هو بعد ضعيف عنى لولا قوتى، ثم أنا بعد ذلك ملء كل شىء، وفوق كل شىء، ومع كل شىء، ومحيط بكل شىء، وأمام كل شىء وخلف كل شىء، ليس ينبغى لشىء أن يعلم علمى، ولا يقدر قدرتى، ولا يبلغ كنه شأنى.

أجعل ذلك البيت لك، ولمن بعدك حرماً وأَمْنًا، أُحرِّم بحرماته ما فوقه، وما تحته، وما حوله، فمن حرَّمه بحرمتى فقد عظَّم حرماتى، ومن أمن أهله فقد استوجب بذلك أمانى، ومن أخافهم فقد اخفرنى فى ذمتى، ومن عظَّم شأنه عَظُمَ فى عينى، ومن تهاون به صغر فى عينى[٣].

ولكل ملك حيازة ما حواليه.

وبطن مكة خيرتى وحيازتى وجيران بيتى وعمارها وزوارها وفدى وأضيافى فى كنفى وأفنيتى ضامنون علىَّ فى ذمتى وجوارى، فأجعله أول بيت وضع للناس، وأعمره بأهل السماء، وأهل الأرض يأتونه

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٢-١٣.   (٢، ٣) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٣.

أفواجاً شعثاً غبراً «على كل ضامر يأتين من كل فج عميق» يعجون بالتكبير عجيجاً، ويرجون بالتلبية رجيجاً، وينتحبون بالبكاء نحيباً [١]. فمن اعتمره لا يريد غيرى فقد زارنى، ووفد إلىَّ، ونزل بى، ومن نزل بى فحقيق علىَّ أتحفه بكرامتى، وحق الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته. تعمره يا آدم ما كنت حيا، ثم تعمره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء، أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن [٢]، ونبيا بعد نبى، حتى ينتهى ذلك إلى نبى من ولدك هو خاتم النبيين، فأجعله من عُمَّاره وسُكَّانه، وحُماته وولاته، وسُقاته يكون أمينى عليه ما كان حيًّا، فإذا انقلب إلىَّ وجدنى قد ذخرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به للقرب منى، والوسيلة إلىَّ [٣]، وأفضل المنازل فى دار المقام.

وأجعل اسم ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وثناءه ومكرمته لنبى من ولدك يكون قبل ذا النبى وهو أبوه يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضى على يديه عمارته، وأنيط له سقايته، وأريه حله وحرمه ومواقفه، وأعلمه مشاعره ومناسكه وأجعله أمة وحده، قانتاً لى، قائماً بأمرى، داعيــاً إلى سبيلى، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم، أبتليه فيصبر، وأعافيه فيشكر، وينذر لى فيفى، ويعدنى فينجز، وأستجيب له فى ولده وذريته من بعده، وأشفعه فيهم،

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٣١ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٣١ ، ابن كثير : الكامل ١ / ٢٤ الطبعة المنيرية.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٣ .

فأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحماته وخدّامه، وسدانه وخزانه وحجابه حتى يبتدعوا ويغيروا، فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل من أشاء بمن أشاء.

أجعل إبراهيم إمام أهل ذلك البيت، وأهل تلك الشريعة، يأتم به حضر تلك المواطن، من جميع الإنس والجن، يطئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سنته، ويقتدون فيها بهديه، فمن فعل ذلك منهم أوفى بنذره، واستكمل نسكه، ومن لم يفعل ذلك منهم ضيع نسكه وأخطأ بغيته، فمن سأل عنى يومئذ فى تلك المواطن أين أنا؟ [١].

فأنا مع الشُعث الغبر الموفين بنذورهم، المستكملين مناسكهم المبتهلين إلى ربهم الذى يعلم ما يبدون وما يكتمون.

وليس هذا الخلق، ولا هذا الأمر الذى قصصت عليك شأنه يا آدم يزيد فى ملكى ولا عظمتى ولا سلطانى، ولا شىء مما عندى إلا كما زادت قطرة من رشاش وقعت فى سبعة أبحر، تمدها من بعدها سبعة أبحر لا تحصى، بل القطرة أزيد فى البحر من هذا الأمر فى شىء مما عندى، ولو لم أخلقه لم ينقص شىء من ملكى ولا عظمتى ولا مما عندى من الغناء والسعة إلا كما نقصت الأرض ذرة من جميع ترابها، وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرة أنقص فى الأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه لشىء مما عندى، وبعد هذا من هذا مثلا للعزيز الحكيم [٢].

(١، ٢) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٤.

وهز هذا الكلام الطيب قلب آدم، وسطعت أضواؤه فى أعماق فؤاده، وتعطش إلى هذا البيت الذى جرى حوله هذا الحديث الميمون وتمنى أن يطوف حوله ويؤدى المناسك المطلوبة عنده.

ولم يمض غير وقت قليل حتى أرشده الله إلى مكانه، وأمره أن يضع أسسه، ويرفع قواعده ويتمه، حتى يكون مثل البيت الذى كانت الملائكة قد بنته، وامتثل آدم عليه السلام للأمر الصادر إليه من قبل المولى عزوجل، مستعذباً ما يبذل من جهد، مستسهلاً ما يعانى من تعب حتى بلغ الهدف وأدرك الغاية[1].

ويقول الرواة :إنه عليه السلام لم يفرغ من بنائه حتى طاف حوله سبعاً [2]، وأتى الباب فصلى عنده ركعتين، واستلم الملتزم، وراح يدعو : اللهم إنك تعلم سريرتى وعلانيتى، فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتي فأعطنى سؤالى، اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيت على[3].

فأوحى الله تعالى إليه :يا آدم قد دعوتنى بدعوات فاستجبت لك، ولن يدعونى بها أحد من ولدك إلا كشفت غمومه وهمومه، وكففت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغناء بين عينيه، وتجرت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها [4].

ويقول الإخباريون :إن آدم رأى الملائكة وهى تحج هذا البيت

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ٥. (٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٣٣.

(٣، ٤) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١١.

وتطوف حوله، وتؤدى مثلما يؤديه من المناسك والمشاعر، فعجب من ذلك فقالوا له: لا تعجب فقد طفنا هذا البيت قبلك بألفى سنة. قال: وماذا كنتم تقولون فى طوافكم؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

ومن الإخباريين من يدعون أن آدم عليه السلام لم يبن البيت الحرام بعد أن رفع البناء الذى أقامته الملائكة، وإنما أنزل الله إليه خيمة من خيام الجنة.

أو ياقوتة من يواقيتها، وأنه كان يطوف حول هذه الخيمة أو الياقوتة حتى صعد إلى الرفيق الأعلى، وأن أبنائه لما رأوا رفع خيمة أبيهم أو ياقوتته بعد وفاته بنوا على غرارها بيتا، ونسجوا على منوال أبيهم فى تعظيمه، وتوقيره، وتقديس الله تعالى[2].

ولأن القرآن قد خلا من هذه الرواية وسابقتها، ولأن السنة الصحيحة قد التزمت بالنسبة لهما هذا النهج نفسه، فإن ترجيح إحدى هاتين الروايتين على أختها فى حاجة إلى دليل مقنع، وحجة ساطعة، وهو مالا سبيل إلى دركه ولا إلى الوصول إليه.

ومهما يكن من شىء فإن أبناء آدم بعد وفاة أبيهم قد عظموا البيت الحرام وقدسوه، وأدوا المناسك والشعائر التى كان يؤديها أبوهم حوله، وتوارثوا ذلك قرنا عن قرن، وجيلا عن جيل[3].

---

(1) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٢.

(2) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٢٣، الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٩.

(3) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٧.

وجاء نوح فعظَّم البيت الحرام وقدَّسه، وأعطاه حقه من التقدير والتوقير [1]، لم يكفه هذا فحسب، ولكنه حج إليه وأدى المناسك والمشاعر حوله، وقد بعث نوح إلى قوم غلاظ شداد، ضلت عن الحق عقولهم، وعميت عن الخير عيونهم، فكان يدعوهم فلا يستجيبون، ويرشدهم فلا يرشدون، وظل على هذا الحال ألف سنة إلا خمسين عاماً، حتى عيل صبره، وضاق صدره ولم يعد يشك في أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأن الاستمرار في نصحهم لن يكون له هدف إلا ضياع الوقت وذهاب الجهد فرفع يديه إلى السماء، وراح يطلب من الله إبادتهم، ويسأله إفناءهم والإجهاز عليهم: ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[2].

وقد سمع الله دعاءه، وأجاب نداءه، وأوحى إليه أنه سيغرق هذه الأرض وما عليها، من الإنسان والحيوان والطير والنبات، وأن الماء لن يبقى على سطحها قلعة ولا حصناً ولا عمارة ولا قصراً: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[3].

وجاء الطوفان فأغرق السهل والجبل، وأباد الحرث والنسل، ولم يزل الماء يعلو ويرتفع حتى كاد يبلغ الأفق.

---

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى 1 / 40، دار بيروت 1978م.

(2) سورة نوح. الآيتان: 26، 27.

(3) سورة هود. الآية: 102.

وقد تسأل وهل غرق البيت الحرام كما غرق غيره من البيوت؟ وهل تهدم وتقوض ما سواه من الدور والقصور؟ والجواب لا، فإن الله سبحانه قد أنجاه كما أنجي نوح والذين آمنوا معه، فرفعه إلي السماء[1]، وأبقاه فيها معظماً مقدساً، تزوره الملائكة، وتحمد الله تعالى وتمجد حوله.

ولما ابتلعت الأرض ماءها، وأمسكت السماء أمطارها، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت السفينة على الجودى، وهو أحد جبال الهند، نزل نوح عليه السلام وأولاده، ومن آمن معه، فأثاروا الأرض وعمروها وملؤها زرعاً وضرعاً، وكان منهم فريق صالح السيرة مستقيم السلوك، جيد الإيمان، وكان منهم فريق آخر على العكس منه تماماً، يهوى الشر ويكره الخير، ويستهدف الفساد في الأرض.

إبراهيم والبيت الحرام:

فبعث الله إلى هؤلاء وأولئك الأنبياء الهادين، والرسل المرشدين، وعلى رأسهم إبراهيم عليه السلام.

ويقول الرواة[2]: إن هذا النبى الكريم قد ولد في ظروف صعبة، وأحوال غير مواتية، مما اضطر أمه إلى أن تخفيه في سرداب تحت الأرض، وتعمى على الناس خبره، حتى لا يسمع الملك شيء عنه

(١) ابن سعد: الطبقات ١ / ٤١

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ١ / ١٢٠، ١٢١ طروائع التراث العربى - بيروت.

فيقتله، كما قتل غيره من الذكور، خوفاً على ملكه، ورغبة فى حماية عرشه، ممن سيتسلط عليه، كما أخبره كهنته ومنجموه، ولما شب إبراهيم وخرج من سردابه، ورأى قومه يعبدون ما ينحتون، فلم يرض لهم هذه العبادة [1] ولا أقرهم عليها، وراح يحاورهم ويجادلهم، وكان ذا حجة ساطعة [2] وقدرة على النقاش والجدال، فيدحض حججهم، ويخرس ألسنتهم، ويجعلهم فى حيرة من أمرهم. وقد سجل القرآن الكريم الكثير من الحوار الذى دار بينه وبين قومه، بعد أن اختاره الله تعالى للنبوة، واصطفاه للرسالة، واقرأوا فى هذا إن شئتم، ما دار بينه وبينهم حول تأليه الكواكب البازغة فى السماء، وحول تحطيمه للأصنام فى أحد الأعياد، فقد بلغ إبراهيم الحد الذى لا يدرك فى القدرة على الاحتجاج والإقناع معاً، ولأن قومه لم يستطيعوا قرع الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، فإنهم أوقدوا له ناراً وألقوه فى الجحيم [3]، غير أن الله سبحانه قد أبطل كيدهم، وبدد مكرهم، فسلب قوة الإحراق من النار، وجعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، ومع وضوح هذه الآية، وسطوع تلك المعجزة، فإن قومه لم ينقادوا له ولا دخلوا فى دينه، مما جعله يفارقهم ويولى وجهه نحو الشام [4]، غير أن إقامته لم تطل فى هذا الوطن الجديد، فقد غشاها القحط، ومشى فى أرجائها الجوع،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١ / ٥٤.   (٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ١ / ١٢٠ وما بعدها، وأيضاً راجع سورة الأنعام: الآيات ٧٤ إلى ٨٣.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ١ / ١٢٣ وما بعدها، البداية والنهاية ١ / ١٤٥، ١٤٦.

(٤) الطبرى: ١ / ١٢٥، ١٢٦، البداية والنهاية ١ / ١٤٩ وما بعدها.

وأصبح البقاء فيها مستحيلا لانعدام أسباب الحياة، وزوال وسائل العيش فغادر الرجل الشام، وولى وجهه شطر مصر، وأقام فيها حتى صلحت أحوال الشام، وانقشعت عنها سحائب القحط والجوع، فغادر إبراهيم مصر، ومعه امرأته سارة، وفارقت أهلها ووطنها من أجله، ولم يكد الثلاثة يستقرون فى الشام ،حتى طلبت سارة من زوجها إبراهيم أن يعقد على هاجر، ويتخذها زوجا له، والسر فى هذا هو أن سارة قد بلغت السبعين، وأن سن زوجها قد زاد عشرين سنة على سنها، وعلى الرغم من تضرعها إلى الله أن يرزقهما غلاماً عليماً يؤنسهما ويعاونهما ويكون مصدر بهجة وأنس لهما، على الرغم من ذلك فإن هدفهما هذا لم يتحقق ودعاءهما لم يُجب فطمعت سارة فى أن يتحقق هذا الحلم على يد هاجر[1]، فتلد لهما ولداً ينعمان به ويأنسان إليه.

وكأنما كانت تنظر من خلال حجب الغيب، فإن هاجر لم تكد تتزوج من إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى حملت ووضعت غلاماً[2]، سماه أبوه «إسماعيل»، ولا تسل كيف تلقى إبراهيم هذا الغلام، ولا كيف استقبله وسعد برؤيته، فقد وهبه الله إياه بعد ما شاب شعره، وانحنى ظهره، وأصبح فى حاجة ماسة إلى من يعينه، ويحمل أعباء الحياة نيابة عنه.

---

(١) البداية والنهاية : ١ / ١٥٣، وكذا الطبرى فى تاريخ الأمم ١ / ١٢٦ وما بعدها.
(٢) البداية والنهاية : ١ / ١٥٣، ١٥٤

ورأت سارة إقبال زوجها على ولده، وانشغاله به، فخيل إليها أنه قد قلاها، واستغنى بإسماعيل وأمه عنها، فتغير لونها، وساء مزاجها، ودبت عقارب الغيرة فى قلبها وحلفت ألا يجمعها وهذا الغلام وأمه بيت واحد ولا بلد واحد.

وتحير إبراهيم، ولم يدر ماذا يصنع، أيترك سارة وهى شقيقة عمره، ورفيقة حياته، أم يؤثرها ويترك إسماعيل وهو حبة قلبه، وفلذة كبده، ولم يترك المولى - سبحانه وتعالى - نبيه فى هذه الحيرة القاتلة، وهذا الاضطراب المميت، فأوحى إليه أن يحمل هاجر وولدها إلى الحجاز[1]، ويتركهما فى مكان حدده له.

وامتثل إبراهيم للأمر الصادر إليه من ربه، وامتطى ناقته ومعه زوجه وولده ومضى حتى إذا أتى واديًا غير ذى زرع، زجر الناقة فوقفت، وأمر هاجر فنزلت ومعها رضيعها، ولوى عنق راحلته شطر الشام، ورأت هاجر ذلك فصاحت وتعلقت بخطام دابته، وقالت: لمن تتركنا يا إبراهيم فى هذا المكان الذى لا أنيس فيه ولا جليس؟ وماذا نفعل إذا نفد ما معنا من الماء، وانتهى ما لدينا من التمر، وانطلقت تبكى وتنتحب، وتتوسل إليه بولده الصغير الذى لا يستطيع الصبر على الجوع والظمأ وإبراهيم صامت، تنحدر الدموع من عينيه، وفهمت هاجر أنه مغلوب على أمره، وأن إرادته فى يد غيره، فقالت: الله أمرك بهذا؟ فهز رأسه أن نعم، فقالت:

(١) المصدر السابق ١ / ١٥٤ - ١٥٧.

إذن فسوف لا يضيعنا ، وتركت خطام الدابة ، وراحت تربت على صدر وليدها ، وظهره ، وقد أخذ يبكى ، ومضى إبراهيم لحال سبيله .

ولم يكد يبتعد عن المكان الذى أنزل فيه زوجه وولده حتى وقف وأدار وجهه إليه ، ورفع يديه ، وراح يقول : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[١] ، وانطلق مستقبلاً بلده الذى أتى منه .

أما هاجر فإنها آوت إلى صخرة على كثب منها ، وأسندت ظهرها إليها ، وألقى الله النوم عليها ، وعلى وليدها ، فلم توقظهما غير أشعة الشمس ، فتناولت قليلاً من التمر ، وشربت قليلا من الماء ، وأقبلت على طفلها ترضعه ، وتسأل الله عز وجل أن يحفظهما من الأفاعى والوحوش التى لم يكن يسكن سواها هذه البقاع .

وهكذا عاشت هاجر وإسماعيل حتى نفد ما عندهما من الماء والطعام ، وأخذ الجوع والظمأ ينشب أظفاره فيهما ، قليلاً قليلاً حتى اشتد ظمؤهما ، ولم يعودا قادرين على الصبر عليه ، فوضعت هاجر إسماعيل إلى جانب الصخرة ، وانطلقت تعدو باحثة عن الماء[٢] ، حتى أتت الصفا وصعدت حتى بلغت قمتها لعلها ترى الماء ، أو من يرشدها إليه ، ولما لم تبلغ ما تريد غادرت هذا الجبل ،

(١) سورة إبراهيم . الآية : ٣٧ . (٢) البداية والنهاية ١ / ١٥٥ .

وراحت تمشي حينا، وتهرول حيناً آخر، حتى أتت المروة، فرقيتها هي الأخرى، وهكذا طفقت تروح وتجيء بينهما والغلام يبكي ويصرخ، وفي الشوط السابع[1]، وبعد أن أضناها الجهد ونال منها التعب، رأت طائراً يملأ الأفق بجناحيه، فأجفلت منه وخشيت أن ينقض على ولدها فيحمله، ويولي إلى حيث يريد، فاشتد حزنها، وعظم خوفها وجزعها، لكن هذا الطائر ما عتم أن ضرب الأرض بأحد جناحيه فانبجس الماء، فأسرعت إليه، وسقت طفلها ثم نقعت غليلها، وراحت تحيط الماء بالرمال وهي تقول: زمي، زمي بارك الله فيك. وكانت قافلة من جرهم خرجت تبحث عن الماء[2]، فرأت الطيور تعلو وتهبط، فقال قائل منهم: إن الطيور لا تفعل هكذا إلا حول الماء، وعهدنا بهذا المكان أنه خال منه، ودفعهم الفضول إلى أن يتبينوا الأمر بأنفسهم، وهالهم ما رأوا، فقد أبصروا الصبية ورضيعها والماء على كثب منهما، وعادوا إلى قومهم وقصوا عليهم ما شاهدته عيونهم، فانطلق زعماؤهم إلى هاجر، واتفقوا معها على أن يقيموا إلى جوارها، وألا يأخذوا من مائها شيئاً إلا بالثمن.

وهكذا عُمِّر الوادي ودبت الحياة فيه، وصار محطاً للتجار، ينزلون فيه، حتى إذا استراحوا من التعب، وتزودوا من الماء، استأنفوا السفر إلى حيث يشاءون.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٢٥٧، تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٢٥٨.

وشب إسماعيل، وأصبح قادراً على السعي والعمل، فزوجته أمه من إحدى بنات جرهم، وحن إبراهيم عليه السلام إلى رؤية ولده إسماعيل، وزوجه هاجر[1]، وكان قد مضى على فراقه لهما زمن طويل، فاستأذن امرأته سارة في زيارة إسماعيل، فأذنت له، واشترطت عليه ألا ينزل عن ناقته فقبل، ولما أتى الوادى الذى أسكن فيه زوجه وولده لم يعرفه، فقد تغيرت سماته، واختلفت معالمه.

وسأل عن ولده فدل عليه فطرق باب داره، فبرزت له فتاة عابسة الوجه، ملتوية الأسارير، فسألها من أنت؟ فقالت: زوج إسماعيل بن إبراهيم، فقال لها كيف أحوالكم وماذا تأكلون؟ فقالت :نحن والله فى أسوأ عيش، وأنكد حياة، ولا نكاد نجد ما نأكله، فضاق صدر إبراهيم، واشتد حزنه على ولده، وقال :إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له إن شيخاً من صفته كيت وكيت قد زارك اليوم، وإنه يوصيك أن تغير عتبة دارك، ولوى عنق ناقته وولى وجهه شطر بلاده.

ولما عاد إسماعيل قال لزوجته: إنى لأجد ريح أبى فهل زارك اليوم أحد؟ قالت: نعم شيخ كبير، سألنى عنك وعن الظروف التى تحيط بك، وبعد أن سمع الجواب قال لى: إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له إن شيخاً من صفته كيت وكيت، قد زارك اليوم،

(١) البداية والنهاية ١ / ١٥٥، اليعقوبى فى تاريخه ١ / ٢٥.

وإنه يوصيك أن تغير عَتبة دارك ، فأطرق إسماعيل قليلا وقال لها : أتدرين من الشيخ ؟ قالت : لا . قال : إنه أبي ، وإنه يأمرني أن أطلقك فاجمعي مالك في هذه الدار وعودي إلى أهلك فقد طلقتك .

وبعد أعوام تكرر هذا المشهد ، فقد استأذن إبراهيم سارة في زيارة ولده فأذنت له ، واشترطت عليه ما كانت قد اشترطت في المرة السابقة ، وطرق إبراهيم باب ولده فخرجت له فتاة جميلة الوجه ، مشرقة الأسارير ، في صوتها رقة ، وفي طبعها هدوء ، ـ وكان قد تزوج سيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ـ فهشت له ، وحفلت بمقدمه ، وطلبت منه أن ينزل عن راحلته فأبى فأحضرت ماء وغسلت رأسه ووجهه ويديه وقدميه ، فدعا لها ، وسألها عن أحوالها فقالت : نحن في عيش رغد ، وحياة راضية ، فقال : وما طعامكم ؟ قالت : الماء واللحم ، فانشرح صدره ، وانبسطت أسارير وجهه وقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام ، وقولي له :إن شيخاً من صفته كذا كذا زارك اليوم ، وإنه يوصيك أن تثبت عتبة بابك ، وودعها عليه السلام ، ومضى لسبيله ، ولما عاد إسماعيل قصت عليه ما وقع فتبسم وقال :أتدرين مَنْ الشيخ ؟ قالت : لا ، قال : إنه أبي ، وإنه يوصيني أن أحسن عشرتك ، وأن أتمسك بك .

وقد صدقت فراسة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد أحسنت هذه الزوجة عشْرة ولده ، ورزقه الله منها البنين والبنات .

وأوحى الله إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يبنى البيت الحرام[1]، وبوأه مكانه، فاستأذن زوجه سارة، وركب راحلته، وولى وجهه نحو الحجاز، ولما دخل الوادى الذى أسكن فيه هاجر وولدها إسماعيل، رآه على كثب من زمزم يبرى أسهما له، فالتزمه، وضمه، وشمه، وبعد أن أنس كل منهما إلى صاحبه، وعرف الكثير عن أحواله وظروفه، قال إبراهيم لولده: يا بنى إن الله أمرنى أن أبنى له بيتاً، وأطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود، قال يا أبت امض لما أمرك الله، ولا تخش تعباً، ولا نصباً، فإنه راعيك، وهاديك، وخالق لك اليسر من العسر، والفرج من الضيق.

وقد رأيت نعم الله عليك. ومننه محيطة بك، فقد حفظنى وأمى من الضر، وفجر لنا الماء من باطن الأرض، وجعل الحياة تسرى فى أوصال هذا الوادى، والناس تهوى، وتستريح إلى الإقامة فيه، ولولا فضله السابغ لكنا طعاماً للضوارى والوحوش.

قال: يا بنى، إن الله أمرنى أن تساعدنى فيه، وتعاوننى على رفع أسسه وقواعده، قال إسماعيل: يا أبت إنى طوع يديك، ورهن كفيك، وإنى أرى أن تمتثل الأمر الصادر إليك من ربك الآن فأنك لا تدرى متى يحين أجلك، وينتهى عمرك، قال إبراهيم: بارك الله فيك، وأتم نعمته عليك، وراح إبراهيم وإسماعيل كلاهما يبنيان

---

(١) قصة بناء البيت الحرام فى تاريخ الطبرى ١ / ١٢٨ وما بعدها. والبداية والنهاية لابن كثير ١ / ١٥٤ وما بعدها، تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٧.

البيت، ويرفعان قواعده، وهما يدعوان المولى سبحانه: ﴿ ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1].

وواضح من هذا الدعاء الطيب، أن إبراهيم وإسماعيل كليهما قد طلبا من الله التوفيق، حتى يتحقق هدفهما، ويينالا مرادهما، وأنهما قد طلبا معرفة المناسك، والشعائر التى أوجبها الله تعالى عليهما، وعلى من يقتفى آثارهما، ويلتزم نهجهما، أضف إلى هذا وذاك، ما سأله الله إياه من إرسال النبى الخاتم الذى يبين للإنسانية خيرها، ويهديها سبلها، ويخرجها مما ترزح تحته من الشر المنكر، وما أشك فى أن المولى عز وجل قد استجاب لهما، وحقق أهدافهما، وغاياتهما.

ولما انتهى البناء، طلب إبراهيم من ابنه إسماعيل أن يحضر له حجرا يكون علامة على ابتداء الطواف حوله[2]، وعلى الرغم من الجهد الذى بذله للعثور على هذا الحجر، فإنه لم يعثر عليه، لا لأن البلد قد كان خاليا من الحجارة، ولكن لأن الصفات التى طلبها إبراهيم لم توجد فيه ولا فى الجبال الملتفة حوله، وعاد إسماعيل يعتذر لأبيه وإذا هو يجد الحجر الذى يبحث عنه بين يدى أبيه وهو يضعه فى مكانه المحدد له.

---

(١) سورة البقرة. الآية: ١٢٧-١٢٩. (٢) الأزرقى: أخبار مكة ١/ ٢٦.

فقال إسماعيل يا أبت من أين لك هذا الحجر ؟ وكيف عثرت عليه؟ فقال : أحضره لي من لا تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه صغيرة ولا كبيرة [١].

وكم كانت دهشة إسماعيل وهو يرى هذا الحجر ، وقد سطع كما تسطع الشمس ، ولمع كما يلمع الجوهر [٢].

ويقول الرواة : إن هذا الحجر قد هبط إلى إبراهيم من الجنة ، وإنه كان أشد بياضا من اللبن ، وأكثر تلألؤا من الماس ، وإن جرهما لما عصوا حول البيت ، ومارسوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، اسود هذا الحجر [٣] ، ولم يعد يلمع ويضيء كما كان من قبل [٤].

وسواء أصحت هذه الرواية ، أم أنه كان حجرا عاديا ، فاحم الوجه منذ الوهلة التي وضعه فيها إبراهيم في مكانه ، فإن مسه وتقبيله أو الإشارة إليه بيد أو عصا ، شعيرة من الشعائر التي يؤديها قصاد هذا البيت وعماره.

وينبغي أن يكون مفهوما أن هذا الحجر لا يضر ولا ينفع ، وأنه لا فرق بينه وبين غيره من صخور الأرض وأحجارها ، وفي هذا يقول الفاروق عمر رضي الله عنه ، وقد أقبل إليه لاستلامه : والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبّلتك [٥].

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٢٦

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٧ ، ٢٨ ، ٢١٩ .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٢٨ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١ / ١٥٣ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٢١٩

وقد تسأل : وما السر فى تعظيمه إذن ؟

والجواب : لأنه رمز من الرموز التى أودعها الله الكعبة ، والتى من أجلها أوجب علينا تقديرها وتعظيمها ، إنه مثل الراية التى تجتمع تحتها طوائف الأمة ، والقبلة التى يتجه إليها المسلمون فى شتى بقاع الأرض فتعظم الحجر الأسود وتقديسه ليس لذاته ، ولكن للمعانى والأغراض التى يحويها ويرمز إليها .

وقد اعترض اليهود على انصراف محمد صلوات الله عليه وأتباعه عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام فى الصلاة [1] ، وقد أجابهم المولى سبحانه بما أدحض حجتهم ، وأوهن وجهة نظرهم ، فقال : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [2] .

فقد أعلنت هذه الآية أن الذين اعترضوا على العدول عن القبلة سفهاء ، أى ضعاف العقول ، ضيقوا الآفاق ، لأن المشرق والمغرب مملوكان لله سبحانه ، وأنه إن شاء جعل عباده يولون وجوههم نحو المشرق ، وإن شاء جعلهم يولونها نحو المغرب ، على أن البر ليس فى التوجه إلى هذه الجهة أو تلك ، وإنما هو فى : «الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين» [3] إلى آخره .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٩ .
(٢) سورة البقرة . الآية : ١٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٧ .

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [(١)].

الخلاصة : أن الكعبة والحجر الأسود وغيرهما من الشعائر، كالصفا والمروة، ليست إلا رموزاً، مثلها في ذلك مثل الأعلام والرايات، ليس في تعظيمها شرك، ولا في تقديسها عبادة، ولا يدل ولاءنا لها ولا استعذابنا الموت في سبيلها، إلا لما فيها من المعاني التي تجمع الشمل، وتوحد الصف، وتؤلف شتات الأمم، حول هدف مشترك، ومقصد عام.

ومهما يكن من شيء فإن الله تعالى قد استجاب لإبراهيم وإسماعيل في دعائهما، وهما يرفعان القواعد من البيت، فأنزل إليهما جبريل، فعلمهما مناسك الحج [(٢)]، وشعائر العمرة، ما خلا منسك واحد، وهو إراقة الدم يوم العاشر من ذى الحجة.

فإنه سبحانه قد أرجأه حتى يبتلى إبراهيم وإسماعيل ويبين للناس مدى طاعتهما لله، وانقيادهما لأمره، وصبرهما على قضائه وقدره.

ويقول الرواة : إن إبراهيم صلوات الله عليه، بعد أن تعلم المناسك

---

(١) سورة البقرة، الآية : ١٧٧.

(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٢٦٢.

والشعائر، رأى في منامه أنه يذبح ولده [١]، ولأن رؤيا الأنبياء حق، ولأنها جزء من أربعين جزءاً من النبوة، فإن إبراهيم لم يخالجه الشك في أن الله يأمره أن يهرق دم إسماعيل، ويقطع خيط نفسه.

ولم يتردد إبراهيم في الامتثال لأمر ربه [٢]، والإذعان لمشيئته، ولكنه رأى أن يشاور ولده [٣]، فلعله يجيبه إلى ما يريد مولاه، فتهدأ نفسه، ويرضى قلبه، ويطمئن إلى أنه لم يرغم ولده على الموت، وإنما نزل فيه على رأيه ومشيئته، ولكي لا تعلم أمه بما استقر عليه عزمه فيطيش صوابها، ويتمزق فؤادها، فإنه أظهر أنه خارج للصيد، وأنه سيصطحب ولده معه [٤]، ووافقت الأم، ولم يخامرها الشك في أن إبراهيم قد أعلن أمراً وأراد أمراً آخر، وكيف يساورها الشك أو تدنو منها الريبة، وهو أبوه الذي يفتديه بروحه، ويدفع الأذى عنه بدمه وماله.

ومضى الولد وأبوه حتى بعدا عن الناس وقعدا في مكان لم يألفاه، ولا تعودوا السير فيه، ولما اطمأن إبراهيم إلى أنه ما من أحد يراه غير الله، دنا من إسماعيل وقال له: ﴿ يا بنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ [٥]. وعلى الفور ومن غير تلكؤ ولا تردد. قال: ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ [٦].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٤٦. (٢) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٤٦. (٤) ابن الأثير: الكامل ١ / ٦٤.
(٥) تاريخ الطبرى ١ / ٢٧٥. (٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٤٦.

وأطرق إبراهيم، وراح يفكر في ابتلاء الله له منذ خرج إلى الدنيا حتى هذه اللحظة، وكيف أنه قد حمل خفية، ووضع خفية، وأقام في السرداب خوفاً من الملك وأعوانه، حتى قضى فيه أيام طفولته، وشطرا من صباه [١] وكيف أن قومه قد قذفوه في الجحيم [٢]، ولولا لطف الله به وإنقاذه إياه لأحرقته النار فيما أحرقت وأفنته فيما أفنت، وكيف أنه عاش حتى بلغ التسعين دون أن يهبه الله تعالى غلاماً يؤنس وحدته، ويزيل وحشته، وكيف أنه لم يكد يرزق هذا الغلام ويشعر أن الدنيا قد ابتسمت له حتى أمره الله أن يضعه وأمه في واد غير ذي زرع [٣]، لا ماء ولا ضرع، وها هو ذا سبحانه يأمره أن يذبح ولده [٤] هذا بمديته، ويقطع خيط نفسه بسكينه.

ورأى إسماعيل أباه على هذا الحال، فخشي أن يكون قد نحبه، فهز كتفيه هزا رقيقا، وقال له: يا أبت لقد أبطأت عن الامتثال لأمر الله، وإني أخشى أن ينالك غضبه، أو يصيبك عذابه، فقم وافعل ما تؤمر [٥]، فإني راض بقضائه، صابر على بلائه.

وقام إبراهيم فكتف ولده وتله لجبينه، وأمر السكين على حلقه [٦]، وكم كانت دهشته وهو يضغط عليها بما أوتي من قوة، وهي لا تفعل شيئاً، وإذا هو يسمع من ينادي من بعيد ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [٧] فينظر فإذا كبش أملح

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١ / ٥٤.
(٢) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤.
(٣) تاريخ الطبري ١ / ٢٥٤.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١ / ٦٤.
(٥) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٧.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٤٦.
(٧) تاريخ الطبري ١ / ٢٧٥.

أقرن يهبط من السماء، حتى يكون بين يديه[1] فيقيده بالحبل الذى كان قد قيد به ولده، ويجيل السكين على رقبته فيسيل دمه[2] ويفرح إبراهيم، ويفرح إسماعيل، ويسجدان شكراً لله الذى أكرمهما ورفع البلاء عنهما.

ومنذ هذه الوهلة وإراقة الدم شعيرة يؤديها الحجيج فى العاشر من ذى الحجة.

ويسجل القرآن هذا الحدث العظيم فيقول: ﴿وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين * رب هب لى من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين﴾ [3].

وواضح من المناسبة التى تم فيها هذا الابتلاء، أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام[4]، فإن التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم فى العاشر من ذى الحجة منسك من مناسك الحج، وشعيرة من شعائره، وقد بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه، والعرب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١ / ٦٤.
(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٢٧٦.
(٣) سورة الصافات. الآيات: ٩٩ - ١١٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١ / ٦٣.

يؤدون هذا المنسك عاماً بعد عام، ويقولون إنهم قد ورثوه عن أبيهم إبراهيم، وجاء في إحدى الروايات أنهم احتفظوا برأس الكبش الذي فدى الله به إسماعيل وقرينه، حتى انبثق نور الإسلام في بلادهم[1].

ومن الناس من يدعي أن الذبيح هو إسحاق[2] وأن هذا الحدث قد وقع في الشام[3] لا في الحجاز، وأول من افترى هذه الفرية هو كعب الأحبار، وتلقف اليهود ذلك منه، وأذاعوه وروجوا له[4]، وحقدوا على العرب لنيلهم هذه المكرمة، التي آثرهم الله بها دون سواهم من ولد إبراهيم[5]، والدليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق: أن النحر يوم العاشر من ذي الحجة منسك من مناسك الحج كما قلنا، وأن إسماعيل وليس إسحاق هو الذي عاش حياته في أرض الحجاز، وهو الذي ساعد أباه إبراهيم في بناء البيت الحرام[6]، وهو الذي علمه جبريل مع أبيه إبراهيم المناسك والشعائر، ولم يشارك إسحاق في شيء من ذلك، فكيف يكون هو الذبيح دونه.

وحجة ثانية وهي ما جاء في التوراة من أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ولده الوحيد، أو ولده البكر، وهاتان الصفتان لا تنطبقان إلا على إسماعيل[7]، فهو أول من أنجبه إبراهيم، أضف إلى هذا

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 1 / 147.
(2) تاريخ اليعقوبي 1 / 27.
(3) ابن الأثير: الكامل 1 / 64.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية 1 / 147.
(5) تاريخ الطبري 1 / 265، 268.
(6) ابن الأثير: الكامل 1 / 61.
(7) ابن كثير: البداية والنهاية 1 / 147.

وذاك أن الملائكة لم يبشروا سارة رضى الله عنها بإسحاق وحسب، وإنما بشروها به وبيعقوب من بعده، فكيف يستقيم فى نظر العقل أن يأمر الله إبراهيم بذبح ولده إسحاق، وهو طفل صغير، وقد بشر أمه عن طريق الملائكة أنه سيعيش حتى يتزوج ويرزقه الله سبحانه ولده يعقوب(١).

وقد ورد عن النبى صلوات الله عليه أنه قال: [أنا ابن الذبيحين] يعنى جده إسماعيل، وأباه عبد الله (٢).

فقد روى المؤرخون وكتاب السيرة، أن عبد المطلب بن هاشم رأى فى منامه من يأمره بحفر زمزم (٣)، وأنه خرج هو وولده الحارث ولم يكن له من الأبناء غيره، ولما حفرها وجد فيها غزالتين ذهبيتين، وعدداً من السيوف والدروع(٤)، فخاصمته قريش فى ذلك، ولم تهدأ حتى جعل الذهب صفائح لباب الكعبة، وقاسم قريشا الشكة(٥) ونذر لئن رزقه الله تعالى عشرة من الولد ليذبحن أحدهم على رتاج الكعبة (٦)، ولما تم له ما أراد، وأراد الوفاء بنذره عارضه أهل مكة (٧)، ولم يكفوا عنه حتى احتكموا وإياه إلى عرافة كانت تقيم على كثب من المدينة، فأمرته أن يحضر عشرة من الإبل، ويضرب عليها وعلى ولده عبد الله بالقداح، فإن خرجت على الإبل نحرت، وإن خرجت على عبد الله أضاف إليها مثلها، وكرر العملية حتى تخرج القداح على الإبل (٨).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١ / ٦٣.
(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٢٦٤.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٨٣.
(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ١ / ٨٧.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ١٣٥.
(٦) ابن كثير: السيرة النبوية ١ / ٨٨.
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ١٤١.
(٨) السيرة الحلبية ١ / ٥٨.

ورضى عبدالمطلب، ورضى قومه هذا الحكم، وأحضر عبدالمطلب الإبل وضرب بالقداح عليها وعلى ولده، فخرجت على ولده، فأضاف إليها مثلها، وطفق يكرر هذه العملية حتى خرجت القداح على الإبل، فأبى إلا أن يعيد العملية ثلاثًا، فلما لم تخرج إلا على الإبل قال له قومه: لقد رضى ربك [1]، وكانت الإبل قد بلغت المائة، فنحرها عبد المطلب، وأطعم منها الإنسان والحيوان والطير [2].

وهكذا نجا عبد الله، وحق لولده محمد صلوات الله عليه أن يقول: [أنا ابن الذبيحين] [3].

وإذا صح هذا الحديث وما أراه إلا كذلك، فإنه يحسم النزاع، ويفصل فى هذه القضية للعرب دون اليهود.

ونعود إلى البيت الحرام وما تم فى شأنه، ونذكر أن إبراهيم وإسماعيل لما فرغا من بنائه، وتعلما مناسكه وشعائره، أوحى الله إلى إبراهيم أن يصعد فوقه، ويدعو الناس إلى حجه، وتعظيم الله تعالى وتقديسه عنده [4]، فقال إبراهيم: يارب وماذا يجدى صوتى، وإلى أين يبلغ فى هذه البوادى القاحلة، والصحراء الموحشة [5]، فأوحى الله إليه: أن صح كما أمرتك، وأذن كما طلبت منك، فسوف يدوى نداؤك فى جنبات هذه الدنيا، ويصل

---

(1) ابن كثير: السيرة النبوية 1 / 89.
(2) السيرة الحلبية 1 / 58.
(3) نفس المصدر السابق 1 / 59.
(4) تاريخ الطبرى 1 / 260.
(5) ابن الأثير: الكامل 1 / 61.

إلى كل بقعة من بقاعها، وسوف يجيبك من النفوس من أردت لها الهدى، وكتبت لها الفلاح والسعادة، فأذن صلوات الله وسلامه عليه: أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا بيته[1]، وزوروا حرمه يغفر لكم ذنوبكم، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويجيبكم إلى ما تطلبونه منه، وما تسألونه إياه.

وقد سجل المولى سبحانه هذا الحدث الكريم، فقال: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾[2].

ففي الآية الأولى: يأمر الله إبراهيم بتطهير البيت بعد إقامته وبنائه، وفي الثانية يأمره بدعوة الناس إلى حجه وتقديس الله تعالى حوله[3]، وفي الثالثة: يميط النقاب عن الأهداف، التي من أجلها شرع الحج ودعا إليه، ويحث عباده على الأكل مما نحروا من الإبل والبقر والشاة، والتصدق على الفقراء البائسين الذين لا قدرة لهم على دفع أثمان اللحوم حتى يأكلوها، وفي الرابعة: يطلب من الحجيج أن يزيلوا شعثهم، ويوفوا نذورهم، ويطوفوا طواف الإفاضة حول الكعبة[4].

---

(١) تاريخ الطبري ١ / ٢٦٠.
(٢) سورة الحج . الآيات : ٢٦ - ٢٩.
(٣) تاريخ الطبري ١ / ٢٦٠.
(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧، ٢١٨.

وهكذا أنجز إبراهيم المهمة الملقاة على عاتقه، وأتم الرسالة المنوطة به، فقد بنى البيت الحرام، وأدى مناسكه وشعائره[1]، ودعا الناس كافة إلى زيارته والقصد إليه[2]، وآن له أن يفارق الحجاز ويئوب راجعاً إلى الشام، حيث ماله ومتاعه وزوجه سارة[3]، التى كان الله قد استجاب لدعائها، وحقق آمالها ورجاءها، وبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب[4]، وهذا هو ما كان، فقد ودع إبراهيم ولده إسماعيل وزوجه هاجر، بعد أن زودهما بنصائحه، وأفاض عليهما من خبرته وتجاربه، وقبل أن يغادر مكة رفع يديه إلى السماء وناجى ربه: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم * ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[5].

ومضى صلوات الله عليه وترك إسماعيل يدير أزمة الأمور فى الحجاز على هدى من ربه، ووحى من لدنه، فقد اختاره للنبوة، واصطفاه للرسالة[6]، وأنزل عليه من الوصايا والتعاليم ما يهديه السبيل، وينير له الطريق، ويكفل لمن اتبعه والتزم نهجه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٧.　(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٢٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١ / ٧٠.　(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٤٩.

(٥) سورة إبراهيم. الآيات: ٣٥-٣٧.　(٦) ابن الأثير: الكامل ١ / ٧١.

والدليل على أن الله تعالى قد اصطفى إسماعيل واجتباه، وجعله أحد أنبيائه ورسله ، قوله في سورة مريم: ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ [١].

وواضح من هذه الآية أن الله تعالى قد أنزل على نبيه إسماعيل شرعا[٢]، وأن الصلاة والزكاة كانتا جزءاً من هذا الشرع، وإن كنا لا ندرى على سبيل القطع كيف كانت صلاته وزكاته، ويكفيه صلوات الله عليه، أنه كان مرضياً عنه من قبل مولاه وخالقه.

وقد تسأل: ولكن من الذين أرسل إليهم إسماعيل صلوات الله عليه؟ والجواب: لقد أرسل إلى جرهم والعماليق [٣]، وكانوا منتشرين بين اليمن والحجاز وفيهما [٤].

ويقول الرواة: إن هاجر ـ رضى الله عنها ـ قد لقيت ربها في حياة ولدها، وإنه دفنها في الحجر [٥]، وإنه رزق اثنى عشر ولداً، وإن أكبرهم هو نابت [٦]، وقد تولى مقاليد الحكم بعد وفاة إسماعيل.

ويقول الرواة كذلك: إن إسماعيل قد زار أباه، وإخوته في الشام، وإنه كان حاضراً عند وفاة أبيه إبراهيم [٧].

---

(١) سورة مريم. الآيتان: ٥٤، ٥٥.
(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٣١٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١ / ٧١.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٣١٤.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٧٨
(٦) ابن الأثير: الكامل ١ / ٧١.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦١.

حول هاجر أم إسماعيل:

وقد يخيل إليك وأنت تطالع هذا الحديث، حول دور إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت الحرام، ودعوة الناس إليه، وتعليمهم المناسك والمشاعر المبثوثة حوله، أن دور هاجر - رضى الله عنها - في هذه الأحداث، وغيرها، قد كان هامشيا، لأن اسمها لم يذكر في هذه السطور إلا في الفينة بعد الفينة، والحين بعد الحين، وليس كذلك.

فإن جهودها - رضى الله عنها - سارية في هذه الأحداث سريان الدم في العروق، فقد حملت وحدها عبء تربية إسماعيل وتأديبه، وحياطته حتى اكتمل وجوده، وأثمر عوده، وأصبح رجلا يعتمد عليه، وتدع تسيير الأمور في مكة إلى تدبيره وتفكيره، ولولا توفيق الله لها، ورعايته إياها، لكان إسماعيل هذا طعاما لوحوش الفلا، أو فريسة للجوع والظمأ.

ولا جدال في أن صبر هاجر على فراق الزوج، واستقلالها وحدها بحمل العبء، قد كان تضحية، لا يقدر عليها الأبطال من الرجال، فضلا عن الصبايا اللواتي لا خبرة لهن ولا تجربة.

وقد تسأل وكيف كانت العلاقة بينها، وبين زوجها إبراهيم - عليه السلام - ؟ وهل تركها، وأفرغ قلبه من حبها، بعد أن أسكنها وولدها صحراء فاران؟

والجواب: لا

فقد كان وفيـًا لها مقدرًا جهادها وكفاحها، وما نأيه عنها، وإيثاره الشام على الحجاز إلا امتثالا لأوامر الله تعالى، وتعاليمه.

وما أظن أنك قد نسيت أنه نبى، وأن مثله لا يمكن أن يسىء إلى زوجة لم تسىء إليه، ولا خرجت على طاعته، وإنما حفظت عرضه وصانت شرفه، ووهبت حياتها لتربية ولده، والحدب عليه، حتى كان نعم الولد لأبيه.

والمؤرخون وإن أمسكوا عن الكتابة عنها، والتوسع فى سيرتها وحياتها، والدور الرائع الذى اضطلعت به فى مكة، فى وجود إبراهيم وفى سفره، فإن ذلك لا يعنى أنها كانت تعيش على هامش الأحداث، فإن الأمر كان على العكس من ذلك تماما، فقد رعت هاجر كما أسلفنا - ولدها إسماعيل، وسقته منذ نعومة أظفاره حب أبيه، وإجلاله له، وتعليمه كيف يعتمد على نفسه، ويواجه الظروف والصروف بمفرده، ولو شاءت لسقته بغض والده، وذكرت له كيف أنه تخلى عنه فى طفولته وعرضه للضياع، وآثر النأى عنه، والتفرغ لغيره.

لكنها كانت نعم الزوجة لزوجها، ونعم الأم لولدها، وليس أدل على هذا من أنه لم يكد يسمع نصيحة أبيه بتغير عتبة بابه، حتى فارق امرأته، وتزوج من غيرها، وأنه لم يكد يسمع من أبيه أن الله يأمره أن يبنى البيت الحرام، حتى ظاهره عليه، وعاونه فى رفع قواعده وأسسه أضف إلى هذا وذاك، أنه لم يتردد فى الانقياد له،

والاستسلام بين يديه عندما أخبره أن الله أراه فى المنام أنه يذبحه .

كل هذا الأدب قد كان أثرا لتربية أمه له ، وحرصها على تهذيبه ، وتثقيفه .

فدور هاجر فى صنع الأحداث ، وإدارة دفتها مما لا سبيل إلى إنكاره ولا إلى الشك فيه .

ومهما كان عذر المؤرخين ، وكتاب السير ، فى الإمساك عن الإفاضة فى حياة هاجر ، ودورها الرائع ، فإنهم ملومون على هذا المسلك نحو امرأة لا يجود الزمان بمثلها إلا فى النادر القليل .

شبهة وحجة :

ونعود إلى رحلة إبراهيم ، وإسماعيل إلى أرض الحجاز ، ونقول : وإن تعجب فعجب ما يدعيه بعض المستشرقين من إنكار رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى أرض الحجاز وبنائهما للبيت الحرام ، وقولهم : إن اليهود قد اختلقوا هذه القصة للتقرب إلى العرب ، والتماس مودتهم ومحبتهم ، ولا دليل لهم على هذه الدعوى إلا زعمهم أنها لا وجود لها فى الحفريات ولا فى كتب المؤرخين المعاصرين لحياة إبراهيم وإسماعيل .

ويقول هذا الفريق كذلك : إن ما جاء فى التوراة والإنجيل والقرآن لا ينهض حجة على وجود هذه الرحلة ، ومن الجائز أن يكون بعض ولد إسماعيل قد زار الحجاز فى أزمنة لاحقة لزمانها .

ونحن ننكر دعوى المستشرقين هذه، وننكر الأدلة التى استندوا إليها فى إثباتها، ونقول: إن رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى أرض الحجاز قد وردت فى القرآن الكريم المنزل من قِبَل الله، الذى يعلم ما كان وما يكون، لا فى هذا الكوكب وحده، ولكن فيه وفى الكون كله.

والقرآن تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، فعجزت عقولهم، وخنست أذهانهم، ولم يستطيعوا أن يدفعوا التحدى بمثله، وعليه فإن كل ما فيه صدق وحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. أما التوراة والإنجيل: فقد حُرِّفا وبُدِّلا، ولا سبيل إلى معرفة ما هو حق منهما وما هو باطل.

فاستبعاد القرآن عن حلبة الصراع والنزال حول هذه القضية فليس إلا ضعفـاً من المستشرقين، وعجزاً عن قرع الحجة بالحجة، ورد الدليل بالدليل.

وقول هؤلاء المستشرقين: إن المؤرخين المعاصرين لإبراهيم وإسماعيل قد خلت كتبهم من الحديث عن هذه الرحلة، كلام فى غاية الغرابة، فهل قرأ هؤلاء المستشرقون هذه الكتب كافة؟ وهل لديهم الدليل على أن شيئاً لم يفنه الزمن منها؟ لا أظن أنهم عرفوا أسماءها فضلاً عن قراءتها واستيعاب ما جاء فيها.

وادعاؤهم أن اليهود وضعوا هذه القصة للتقرب إلى العرب وكسب مودتهم ومحبتهم كلام غير مقبول، فإن اليهود يزعمون أنهم أبناء سارة الحرة، وأن العرب أبناء هاجر الأمة المسترقة، فكيف يتقربون إلى العرب بما يذرى من شأنهم، وينقص من قدرهم.

وصفوة القول في هذه القضية :أن رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى أرض الحجاز حق، وأن بناءهما للبيت الحرام حق كذلك، وأن دعوة المستشرقين قول بلا علم وادعاء بلا بينة.

***

من سجل الأساطير :

وثمة قضية أخرى أثارها بعض الباحثين، وهى أن إبراهيم وإسماعيل لم يكونا هما أول الذين بنوا البيت الحرام بعد الطوفان، وإنما سبقهما إلى بنائه المصريون الذين فروا من وجه الثورة التى أشعلها الكهنة على أخناتون، وساعدهم فيها الشعب، فإن هؤلاء المصريين قد هربوا إلى أرض الحجاز، وأقاموا فى مكان البيت الحرام بيتا لأنفسهم على غرار المعبد الذى بناه أخناتون فى مدينة منف.

وحجة هؤلاء الباحثين على سلامة ما ذهبوا إليه تتلخص فى وجوه أحدها: أن المصريين هم أول من عرفوا التوحيد، ورفعوا رايته، وأن الذين وحدوا الله تعالى من غيرهم قد نهجوا نهجهم، ونسجوا على منوالهم[1].

وثانيها: أن الكتب السماوية الثلاثة، وهى التوراة والإنجيل والقرآن قد خلت تماماً من الحديث عن البيت الحرام قبل إبراهيم، مما يفتح الباب على مصراعيه أمام البحث والدرس والاجتهاد[2].

وثالثها: أن إبراهيم بعد بنائه للبيت الحرام، دعا ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، ومعنى هذا أن الأصنام كانت منصوبة حول البيت قبل إعادته لبنائه[3].

(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة ص ٣٠ - ٣٢.

(٢) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة ص ٢٨.

(٣) المرجع السابق ص ٢٨.

ورابعها : أن الله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام أن يطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود، ولا معنى لذلك إلا أن تكون هذه العبادات موجودة من قبله[1].

وخامسها :هذه الصورة التى ضمنها أصحاب هذا البحث صفحات بحثهم، ومنهم رسم لأناس يتوضئون، وآخر لرجال يؤدون الصلاة على غرار صلاة الجماعة عند المسلمين[2].

ويضيف أصحاب هذا البحث أن المصريين الهاربين إلى أرض الحجاز قد سموا أنفسهم جرهما، وهى لفظة مصرية قديمة معناها المهاجرون ويدعى هؤلاء الباحثون أن هؤلاء المصريين الذى سموا أنفسهم جرهما قد عثروا على هاجر امرأة إبراهيم، فآوت إليهم وعاشت فى أكنافهم، لما بينها وبينهم من وحدة الدم واللغة[3].

وقد شارك إسماعيل وولده أخوالهم جُرهمـًا فى حكم الحجاز، وبسط سلطانهم على مكة والبيت الحرام، إلى غير ذلك من الأساطير التى سنبينها فى موضعها من هذا الكتاب.

والذى يستعرض هذه الأدلة ويناقشها يتبين له أنها داحضة ولا تساوى ثمن الورق المكتوبة عليه.

فبالنسبة للدليل الأول، فنحن لا نسلم أن المصريين هم أول من عرف التوحيد وحمل لواءه، وإنما الذين يستحقون هذه المأثرة إنما

(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة ص ٢٨. (٢) المرجع السابق ص ٢٨.
(٣) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة ص ٣٢.

هُمْ آدم وأبناؤه الأولون، لأنهم هم أول من سكن هذه الأرض، وأول من عبدالله تعالى فى سهولها وجبالها، اللهم إلا إذا كان هبوط آدم من الجنة قد كان فى مصر وهو مالا دليل عليه ولا حجة تدعمه وتشد أزره.

وبالنسبة للدليل الثانى :فإننا لا ننازع فى أن التوراة والإنجيل والقرآن قد خلت تماما من الحديث عن البيت الحرام قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لكننا فى الوقت نفسه نؤكد أن آيات القرآن الكريم تكاد تصرح بأن الله عز وجل لم ينوء مكان البيت الحرام إلا لإبراهيم[1]، ولم يطلب من أحد أن يرفع القواعد منه قبله - صلوات الله عليه - وقبل ولده إسماعيل[2].

وفى هذا يقول المولى سبحانه : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً﴾[3] ويقول أيضا : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾[4].

وبالنسبة للدليل الثالث : فإن طلب إبراهيم من ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، لا يدل على أن الأصنام كانت منصوبة حول البيت، وإنما يدل على كراهيته عليه الصلاة والسلام لها، ورغبته فى صرف الله له ولبنيه عنها.

(١) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٨.
(٢) ابن الأثير : الكامل ١ / ٦١.
(٣) سورة الحج . الآية : ٢٦.
(٤) سورة البقرة . الآية : ١٢٧.

والذى يستعرض حياة هذا النبى الكريم، يرى كيف عانى من الأصنام، وكيف كانت مقاومته لعبادتها سببـًا لقذفه فى النار، وكيف غادر من أجلها وطنه ومسقط رأسه إلى الشام[١].

فكراهية إبراهيم عليه الصلاة والسلام للأوثان والأصنام أوضح وأظهر من الشمس فى رائعة النهار.

وبالنسبة للدليل الرابع: فإننا لا نرى ارتباطا بين طلب الله تعالى من إبراهيم أن يطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود، وبين وجود هذه العبادات من قبل، وكل ما يفهم من الآية من هذه الأشياء ستكون من العبادات التى سيطلبها الله تعالى من الناس فى هذا البيت بعد إقامته والانتهاء من بنائه.

وبالنسبة للدليل الخامس: وهو هذه الصور والرسوم التى ضمنها هؤلاء الباحثون صفحات بحوثهم، فإننا نؤكد أنهم إنما رسموها بأيديهم، وإلا لأرشدونا إلى المقابر أو المعابد التى رأوها فيها أو نقلوها منها، وحتى لو افترضنا صحتها فإنها لا علاقة بينها وبين ما زعموه من أن البيت الحرام إنما بنته أيدى المصريين الهاربين من ثورة الكهنة على أخناتون.

والأمر كذلك بالنسبة لقولهم إن جرهما هم المصريون الهاربون إلى الحجاز، وإن هذه الكلمة شائعة فى اللغة المصرية القديمة ومعناها المهاجرون.

---

(١) تاريخ الطبرى ١ / ٢٤٤.

فإن هذا الكلام فضلا عن افتقاره إلى الدليل، مخالف لما أجمعت عليه المصادر العربية، من أن جرهما هي إحدى القبائل اليمنية[1]، وإنها قد غادرت الجنوب إلى الشمال في فترة انعدمت فيها أسباب الحياة الراضية حولهم.

وصفوة القول: أن كل ما قيل عن البيت الحرام قبل إبراهيم لم يرد على لسان معصوم، كما يقرر الحافظ بن كثير، وأن ما يترتب عليه مما ورد في البحث السالف الذكر وغيره قول بلا حجة وادعاء بلا بينة، وخوض في مسائل لا سبيل إلى إثباتها، ولا إلى ترجيح جانب الوجود فيها على جانب العدم، يبقى سؤال لا سبيل إلى إغفاله ولا إلى غض الطرف عنه، وهو: كيف عرف المصريون الهاربون من الجور والاضطهاد مكان البيت الحرام حتى بنوا معبدهم فيه؟ وهل كان ذلك منهم على سبيل الصدفة المحضة، أم أن هاديا هداهم إليه،ومعلما علمهم إياه؟إن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم يعرفه، ولا كان له أن يعرفه لولا تبوء الله[2]وتعيينه لأقطاره وجهاته، وما أظن أن أصحاب هذا البحث سوف يكون لهم جواب إلا الصدفة، وهي مما لا يعول عليه في مثل هذه الأمور.ونعود إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ونذكر أنه ظل يمارس الحكم والنبوة، حتى لبى نداء ربه[3]. وله من العمر مائة وثلاثون سنة[4].

---

(1) ابن كثير . البداية والنهاية ١ / ١٧٨ .

(2) الأزرقي: أخبار مكة١ / ٤٤ .

(3) ابن الأثير: الكامل١ / ٧١ .

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك١ / ٣١٤ .

الفصل الثانى
« البيت الحرام »
فى عهدى جرهم وخزاعة

حكم جرهم :

وبعد موت إسماعيل ورثه أكبر أبنائه وهو نابت، ونسج على منوال أبيه في إدارة شئون الحجاز، وتدبير أموره[1]، دون النبوة فإن الرواة لم يذكروا أنه نالها، وبعد أن قضى هو الآخر ورثه أخوه قيدار، وفي عهده تدخل أخواله من جرهم في الحكم[2]، وأخذ نفوذهم يقوى ويشتد حتى كان السلطان إليهم وحدهم، ولا سيما بعد إقصاء قاطوراء عن البيت، وتجرعها الهزيمة المنكرة على أيدي جرهم.

فقد ذكر الرواة أنها وقاطوراء قد كانتا تتقاسمان مكة، فكانت جرهم تعشر التجار المارين بها من أعلاها وكانت قاطوراء تعشرهم من أسفلها[3].

وبقي الحال على ذلك حتى طمعت كل من القبيلتين في السيطرة على ما تحت يد الأخرى، وتفاقم الأمر واشتعل، وبات يرهص بالشر وينذر بالخطر، واستعد الفريقان كلاهما للحرب والضرب، فخرجت جرهم وعليها مضاض بن عمرو، تقعقع في السلاح، وخرجت قاطوراء وعليها السميدع على ظهور الخيل، وقد سمي المكان الذي خرجت منه القبيلة الأولى: «قيقعان» وسمي المكان الذي خرجت منه الثانية: «أجياد»[4]، ودارت بين القبيلتين معركة

---

(١) ابن سعد: الطبقات ١ / ٥٢.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٣.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٤٠.
(٤) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٣، ١٠٤.

قاسية، هزمت فيها قاطوراء، وفضحت فى أموالها ونسائها وذراريها وقد سمى المكان الذى شهد هذه المعمعة «فاضحا»[١]، ثم أن مضاض بن عمرو أقام الولائم ونحر الجزر، وقدم لأنصاره من جرهم الثريد واللحم حتى شبعوا، وقد سمى المكان الذى نصبت فيه المآدب: «مطابخ»[٢]، وهذه الأسماء كلها موجودة حتى اليوم، ولما نفيت قاطوراء وأصبح السلطان كله بين أيدى جرهم، حمت البيت، وعدلت فى الإدارة، وقدمت لضيوف الرحمن ما كان يقدمه إسماعيل عليه السلام وولده من بعده[٣]، ولم يمس أبناء إسماعيل أذى من أخوالهم، وإنما رعوهم وعرفوا مكانتهم ومنزلتهم، غير أن جرهم لم تبق طويلاً على النهج، وإنما تجاوزته وانصرفت عنه، فجارت وطغت، ولم ترع لله حرمة، ولا لضيوفه ذمة، ومارست الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، واستولت على أموال البيت لنفسها[٤].

والرواة يذكرون أن إساف ونائلة، وهما رجل وامرأة، استباحا حرمة البيت، وفسقا فيه، أو على كثب منه، فمسخهما الله تعالى حجرين، وقام عقلاء القوم، وأصحاب الرأى والحكمة فيهم، ووضعوا أحدهما على الصفا، ووضعوا الآخر على المروة وذلك حتى يكونا عظة وعبرة لكل من تحدثه نفسه بهتك حرمة البيت،

---

(١) الأزرقى: أخبار مكة١ / ٤٠.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٤.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة١ / ٤٠.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ١٠٤.

والاجتراء على الفساد فيه، غير أن تقادم العهد بهما، ونسيان ما كان منهما، صرف الناس عن سبهما ولعنهما، إلى عبادتهما والتقديس لهما [(١)].

وروى الإخباريون وكُتَّاب السِّير، أن جرهم قد حفرت بئراً صغيراً إلى جانب البيت الحرام، وأن الناس كانوا إذا أرادوا الإهداء إلى الكعبة جعلوا هداياهم فيه، واتفق جماعة من اللصوص على سرقة هذه الهدايا، وكادوا يصلون إلى ما يريدون، لولا أن حية سوداء الظهر، بيضاء البطن، خرجت إليهم، فلما سمعوا فحيحها خافوا ولم يتمكنوا من أخذ شيء من هدايا البيت [(٢)].

ويقال: إن هذه الحية ظلت تحمي البيت، وتدفع اللصوص عما يهدى إليه، حتى استقر عزم قريش على هدمه وإعادة بنائه، ولما جاءوا بمعاولهم ومكاتلهم برزت إليهم هذه الحية، فهابوها ولم يستطيعوا عمل شيء في وجودها، فجاء عقاب فهبط إليها حتى أخذها، فتفاءل القوم وعلموا أن الله غير غاضب على ما أرادوه وأعدوا له [(٣)].

***

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٣٠.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٨.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٤٤.

حكم خزاعة :

ورأى بنو بكر بن عبد مناة، وبنو غبشان من خزاعة بغي جرهم وظلمها لحجاج البيت الحرام، واعتداءها على الأموال التي تهدى إليه فأجمعوا على حربها وإقصائها، لا عن الحرم وحده، ولكن عنه وعن الحجاز على سبيل العموم، وبعد معارك قاسية، وحروب شديدة بينهم وبين جرهم، نال بنو بكر وبنو غبشان ما كانوا يتمنونه ويطمحون إليه[1].

وخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي وقومه من مكة إلى اليمن بعد دفنه لغزالي الكعبة، وحجر الركن حتى لا يقع في أيدي الأعداء[2]. وقد حزنت جرهم على مغادرتها الحرم، وعودتها مهزومة إلى اليمن، وقال عمرو بن الحارث في ذلك[3]:

وقائلة والدمع سكب مبادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما
يلجلجه بين الجناحين طائر

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٥. (٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٠.
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٦، سيرة ابن كثير ١ / ٣٠، ٣١.

بلى نحن كنا أهلها، فأزالنا

صروف الليالى والجدود العواثر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت

نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

ونحن ولينا البيت من بعد نابت

بعز، فما يحظى لدينا المكاثر

ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا

فليس لحى غيرنا ثم فاخر

ألم تنكحوا من خير شخص علمته

فأبناؤه منا، ونحن الأصاهر

فأن تنثنى الدنيا علينا بحالها

فأن لها حالا، وفيها التشاجر

فأخرجنا منها المليك بقدرة

كذاك - يا للناس - تجرى المقادر

أقول إذا نام الخلى ولم أنم

إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر

وبدلت منها أوجها لا أحبها

بذلك عضتنا السنون الغوابر

وصرنا أحاديث وكنا بغبطة
لذلك عضتنا السنون الغوابر
فسحت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم آمن، وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه
يظل به أمنا، وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام أنيسة
إذا خرجت منه، فليست تغادر[١].

والذى يطالع هذا الشعر، ويمعن النظر فى مبانيه ومعانيه، يخيل إليه أنه عيون تبكى، وأجفان تنوح، فقد فقدت جرهم ملكها، وعدمت مجدها، وأقفر منها البلد الحرام، والبيت الحرام[٢] وأبدلها الله الخوف بعد الأمن، والجوع بعد الشبع، ورعى الشاة والبعير بعد الخمر والخمير، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، فهم الذين جاروا فى بلد الله الآمن، وهم الذين فجروا فى حرمه الوادع، فنهبوا الأموال، واستعذبوا الضلال ولم يرعوا لله حرمة، ولا لضيوفه ذمة[٣].

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٥٣,٥٢.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٤٩.
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٤.

ولو أن ملوك الأرض كافة كاثروهم، ليغصبوا ملكهم، ويمزقوا سلطانهم، وهم مستقيمون على الطريق، مطبقون لملة إبراهيم، وشريعة إسماعيل، لفل عزمهم، ووهن سلطانهم، وفروا فائزين من الغنيمة بالإياب، وتلك عبرة لمن يعتبر، وعظة لمن يتعظ، وما كان الله ليعز قوماً أذلوا عباده، وأساءوا إلى ضيوفه، وزرعوا الخوف والرعب في بلد آمن[1]، وحرم شارف جعله الله مثابة للناس وأمنا وهدد من يريده بإلحاد بظلم بالذل في الدنيا، والنار في الآخرة.

فليت شعري أوعت بكر وخزاعة هذا الدرس، وهل أثر فيها ما أصاب جرهم من التبدد والتمزق، بعد أن كان الملك في أيديهم، وكان الغنى والثراء يتدفق من فوقهم ومن تحت أرجلهم؟ هذا ما سنعرفه وما سنميط النقاب عنه.

والذي يستعرض المصادر الأصلية يتبين له أن بكراً وخزاعة لما غادرت جرهم الحرم، وولت وجهها نحو اليمن، نشرت العدل في مكة وما حولها، وأزالت الظلم والجور، وساوت بين سكان مكة ومن يفد إليها من شتى أنحاء الجزيرة للحج والعمرة، أو هما معاً[2]، بيد أن هذا الحكم النظيف لم يبق طويلاً، فقد أقصت خزاعة بكراً عن القيادة واحتجنتها لنفسها ولم تجعل لها في السياسة ناقة ولا جمل[3].

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٣٠.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٥٤.
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٨.

وإثم آخر ارتكبه عمرو بن لحى ـ وكان أحد حكامها المشهورين ـ وهو إدخال الوثنية إلى مكة، ونصب الأصنام حول الكعبة[١]، وكان الناس آنذاك على دين إسماعيل، يعبدون الله الواحد، ولا يشركون معه شيئاً، في الأرض ولا في السماء.

ومن الإنصاف للتاريخ أن نقول: إن جلب عمرو للأصنام إلى بلاد الحجاز قد كان صدفة، ومن غير تفكير سابق، فقد خرج من بلاده متوجهاً إلى الشام، وفي أرض العماليق رأى طوائف منهم، عاكفين على أصنام لهم، فقال: ما هذه؟ قالوا آلهتنا نستمطرها فتمطرنا، ونستنبتها فتنبت لنا ما نشاء من الزرع والأشجار والنخيل والأزهار، فطلب منهم أن يبيعوا له منها صنماً، فباعوه هبل، وكان من عقيق أحمر، فحمله إلى مكة، ونصبه على كثب من الكعبة، ودعا خزاعة وغيرها من سكان الحرم إلى أن يعبدوا هبل[٢]، فعارضوه في بداية الأمر، ثم راحوا يدخلون في هذه العبادة الجديدة فرداً إثر فرد، وجماعة تلو جماعة، ولم يكن جلب الأصنام ودعوة العرب إلى عبادتها هما كل ما استحدثه ابن لحى، ولكنه أدخل في دين إبراهيم وإسماعيل أموراً أخرى كثيرة، فهو الذي بحر البحيرة وسيب السائبة، وهو الذي وصل الوصيلة، وحمى الحام[٣].

وقد تسأل: ولماذا أطاعه العرب وتابعوه على ضلاله إلا قليلا منهم؟والجواب هو أنه كان كثير المال، حتى لقد بلغ ما كان يملكه

(١) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٥٤.
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ١ / ٣٢.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٥٤.

من الإبل وحدها عشرين ألفا[1]، وكان سخيا جوادا، وكان يلت السويق للعرب، ويطعمهم الحيس، وهو الدقيق المخلوط بالسمن، وبلغ ما نحره في أحد مواسم الحج عشرة آلاف[2] من الضأن والماعز والإبل والبقر، فما صد عنها إنسانا ولا حيوانا ولا طائرا يطير بجناحيه، ومن أجل هذا كان العرب يحبونه ويجلونه، ولا يعصونه في أمر ولا في نهي[3].

وقد روى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه ذكر عمراً هذا فقال فيه: إنه رآه يجر قصبة في النار[4]، وذكر من ضلالته إفساد دين إبراهيم وإسماعيل بما جلب إلى بلاد العرب من الأوثان، ونسب إليه بحر البحيرة، وتسييب السائبة[5] ..إلى آخره.

وقد أنكر المولى سبحانه على العرب هذه الخرافات فقال[6]: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾[7].

وأنكر عليهم كذلك هذه الشركة التى زعموها بين الله تعالى وبين شركائهم من الأصنام والأوثان، وقال في ذلك: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٣٢.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٢.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٥٤.
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٣٣، والقصب: الأمعاء.
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ٧١.
(٦) سيرة ابن كثير ١ / ٣٤.
(٧) سورة المائدة. الآية: ١٠٣.

إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[1].

والسر في هذا الإبطاء عن الدخول في الوثنية، هو أنهم كانوا على ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام [2]، وهاتان الديانتان ترفعان لواء التوحيد، وتقاومان الشرك وأهله، وتعتبران الأصنام حجارة لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ثم إن الوثنية قد انتشرت في كل قبيلة، حتى إن كل واحدة منها قد كان لها صنم تعبده، وتقدس له، وتطوف حوله، وتنحر بين يديه الذبائح، وتقرب إليه القرابين [3].

ومن الرواة من يزعمون أن عمرو بن لحي ليس هو الذي أشاع الوثنية في العرب، وإنما كان الناس يهوون مكة، ويحبون الكعبة، وكانوا إذا فرغوا من حجهم حمل كل واحد منهم حجرًا من أحجار

(١) سورة الأنعام: ١٣٦ - ١٣٩.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٢.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٣٥، ٣٦.

مكة تبركًا به، وبرهانًا على أن نار حبه للكعبة لن تنطفئ، وإنما ستبقى عالية الهامة، مستطيرة الشرر. ولما قدم العهد ظنوها آلهة وعبدوها.

وهكذا انتشرت هذه العبادة وزاد نموها حتى لم تبق قبيلة إلا وعندها واحد منها [1].

***

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٧٢، ٧٣.

الفصل الثالث
البيت الحرام
« فى عهد قصى وأبنائه »

مكة فى عهد قصى :

ونعود إلى خزاعة ونقول : إنها أخذت تنجرف عن الحق ، تسير سيرة جرهم فى حكم مكة وما حولها من أرض الحجاز ، فجارت وظلمت ، وأفسحت الطريق أمام العابثين والمستهترين ليفسدوا فى الأرض ، وينشروا الفواحش ، والجرائم من القتل والسرقة ، وقول الزور واستغلال الضعفاء ، الذين لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم ، ولا الانتقام ممن ظلمهم ، وبغى عليهم ، وظلوا على هذه الحال حتى ظهر قصى بن كلاب فجمع قريشاً وأسكنها حول الحرم ، وقاتل خزاعة حتى أخذ منها مفتاح الكعبة ، وأجهز على نفوذها فى البيت الحرام[1] .

ويقول الرواة : إن قصياً هذا هو زيد بن كلاب ، وإنه ما سمى قصياً إلا لأنه تربى منذ نعومة أظافره فى مكان قاص عن مسقط رأسه وعش آبائه وأجداده[2] .

وقصة هذا الرجل كما ترويها المصادر هى : أن أباه كلاباً قد مات وهو شاب ، وتركه هو وأخاً له اسمه زهرة ، وقد تزوجت أمه فاطمة رجلاً من عذرة اسمه ربيعة بن حرام ، فحملها وابنها قصياً إلى بلاده ، وترك زهرة لأنه كان قد بلغ ولم يعد فى حاجة إلى من يؤدبه ويرعى شئونه[3] .

---

(١) الأزرقى ١ / ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٦٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٩ .

ويقول المؤرخون وكُتَّاب السِّير : إن قصياً عاش في عذرة حتى اكتمل عقله وقوى جسمه ، وبينما هو يلهو ويلعب بين أترابه ، قال له أحد رفقائه إنك لست منا وإنما أنت دخيل علينا ، فاذهب إن استطعت إلى حيث يسكن آباؤك وأجدادك . وأحزن هذا القول قلب قصي ، وملأه هماً وغماً ، فذهب إلى أمه وسألها عن أبيه . فقالت : إنه ربيعة بن حرام يا بنى فقال لها : لا ، وإن لم تكشفي لي عن حقيقته لأقتلن نفسي . فقالت : إن أباك كلاب بن مرة [1] ، أحد أولاد إسماعيل بن إبراهيم ، وإن قومك هم حجاب الكعبة ، وأصحاب الحل والعقد في مكة . قال قصي : فإني ذاهب إليهم فمقيم بين أظهرهم .فقالت : إذا كنت قد عزمت على ذلك فانتظر حتى تأتي الأشهر الحرم ، فإنها أشهر أمن وسلم [2] ، لا يخاف فيها الناس ، ولا يغدر بعضهم ببعض .

ونزل الفتى على نصيحة أمه ، ولما جاءت الأشهر الحرم غادر أرض عذرة في حج قضاعة ، ومضى حتى أتى مكة [3] ، وكان وضيئاً جميلاً ، حلو الحديث ، حسن العشرة رضى الخلق ، فأحبه حليل بن حبشية ، زعيم خزاعة ، وصاحب الأمر والنهى في مكة . ولم يلبث إلا قليلا حتى زوجه من ابنته [4] حبى ، فأنجب منها عبد الدار ، وعبد العزى ، وعبد قصي ، وعبد مناف [5] .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٥٧ .
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٦٧ .
(٣) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٥٨ .
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٦٧ .
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٩ .

واغتبط حليل بهؤلاء الأبناء، ولأنه لم ينجب سوى حبى فإنه قد اعتبرهم أبناء له، وأجمع الرأى على أن يحل أباهم محله فى حجابه البيت وولاية الأمر، وأوصى له بذلك بعد وفاته [1].

وثم رواية أخرى تقول: إن حليلاً لما شاخ وعجز عن إدارة شئون مكة، تنازل عنها لابنته حبى، ولأنها كانت هى الأخرى ضعيفة لا تستطيع تطهير البيت، فإنها أعطت مفتاحه لأبى غبشان، وكان سكيراً خميراً، وقد صاحبه قصي، وكان يقرضه حتى يشترى ما هو فى حاجة إليه من الشراب، وذات يوم طلب أبو غبشان زقاً من الخمر، ولما لم يجد المال الذى يبتاعه به سأل قصياً أن يقرضه له فأبى حتى يبيعه مفتاح الكعبة، فاشتراه منه بهذا الزق [2].

ويبدو لى أن هاتين الروايتين كلتاهما مختلفتان، فما كان لحليل أن يتنازل عن الحكم لابنته حبى لأنها امرأة، وفى خزاعة من الزعماء الأكفاء من يصلح لهذه الولاية، ويحسن حمل أعبائها على عاتقه، ولا كان ينبغى له كذلك أن ينقل ولاية البيت من أبناء قبيلته إلى واحد من غيرها حتى ولو كان من ولد إسماعيل، والأمر كذلك بالنسبة لإعطاء حبى مفتاح الكعبة لأبى غبشان، وهو السكّير الخمّير الذى لا يرعى أمانة ولا يحافظ على وديعة.

والذى لا شك فيه هو أن قصيًّا لم يتطلع إلى ولاية الأمر فى مكة لأن حليلاً قد تنازل له عنه [3]، ولا لأنه قد اشترى مفتاح الكعبة من

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٤٨.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٥٢.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٦٨.

أبي غبشان [١]، ولكن لأنه أحد ولد إسماعيل بناة البيت، وأحق الناس بسدانته وحجابته، وما خزاعة إلا قبيلة اغتصبت الحكم من أخوالهم جرهم، وأخرجتهم من البلد الحرام [٢] إلى اليمن ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح.

ومهما يكن من شيء فإن قصياً عزم على استعادة ملك آبائه وأجداده، وأخذه من خزاعة طوعاً أو كرهاً، وتحدث إلى قريش في ذلك فوافقوه، ووعدوه أن يشدوا أزره، ويقفوا إلى جانبه[٣]، حتى يستعيدوا حقهم في البلد الحرام، والبيت الحرام.

ولأن قصياً كان يعلم أن قتال خزاعة وأنصارها ليس أمراً سهلاً، فقد بعث إلى أخيه لأمه رزاح، وطلب منه المساعدة، وكان أكبر إخوته أبناء ربيعة بن حرام، ولما وافى رزاح وإخوته جلهم وحسن ومحمود [٤] في مئات من عذرة، أشعل قصي الحرب على خزاعة وبكر، وتجالد الفريقان بالسيوف، وتطاعنا بالرماح، وكثر القتلى من الفريقين[٥]

ولأن هذا القتال قد كان في موسم الحج، وعقب أداء الشعائر والمناسك فإن عددا من زعماء الحجيج مشى بين الفريقين المتشاجرين ودعاهما إلى الصلح فقبلا، وحكموا بينهما في الدماء

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٥٢.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٥.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٦٨.
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٤٨.
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١١٥.

يَعْمُر بن عوف بن كعب، فقبل الحكومة، وجعل فناء الكعبة مكانا لها [1]، ولما اجتمع الناس حكم يَعْمُر لقصى، وطلب من خزاعة أن تتخلى له عن حكم مكة، وحجابة الكعبة، وعد القتلى فوجدهم فى خزاعة أكثر منهم فى جند قصى، فأهدر دماء خزاعة، وحملها دية من قتلت من جنود قصى [2]، ولأن المعركة التى دارت رحاها بين الفريقين قد كانت فى موضع يفضى إلى منى فقد أطلق على هذا المكان [3] «المفجر» [4] لكثرة الدماء التى سالت فيه.

وهكذا انتهى حكم خزاعة للبلد الحرام، وانقضت ولايتهم للبيت تماماً، كما خرج الملك والسلطان من جرهم.

والذى يدرس الأسباب التى من أجلها طردت هذه القبيلة الأخيرة من الحرم، وزال عنها مجدها وملكها، يرى أنها هى الأسباب التى من أجلها زالت خزاعة وانكسرت، وتجرعت كأس الهزيمة والانحدار: ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [5].

ومن الإنصاف لهذه القبيلة المهزومة أن نثبت أنها قاومت اعتداء تبع الأول على الكعبة، واعتداء تبع الثانى، وحاربتهما حتى ردتهما إلى بلادهما [6] دون أن ينالا شيئاً مما خرجا من أجله من اليمن إلى

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٥٩.
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٦٩.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٥٩.
(٤) المفجر: مكان خلف الجبل المقابل لثبير.
(٥) سورة هود. الآية: ١١٧.
(٦) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٥٦.

أرض الحجاز، مما يؤكد ما سبق وقررناه من أن الله سبحانه يحمي بيته ويقيه بأس عدوه، وينصر سدنته وحُجَّابه على من يريدهم بسوء، ما داموا مخلصين له لا يردون عنه قاصدا، ولا يظلمونه ولايسيئون إليه، ماداموا حوله يقيمون شعائره، ويؤدون مناسكه.

ومهما يكن من شيء فإن خزاعة قد استسلمت للواقع، ولم تحاول تغييره ولا نقضه، وخلص الحكم لقصي[1]، فجمع قريشا وكانوا ثلاث عشرة بطنا، فأسكن منهم عشرة بطون حول الكعبة وسماهم «قريش البطاح» وأسكن البطون الثلاثة الأخرى بعيدا عن إخوانهم في البادية وسماهم«قريش الظواهر»[2].

والسبب في هذا هو الاحتياط لمكة، والخوف عليها من الغارة، فجعل قريش الظواهر، الخط الأول للدفاع عن البلد الحرام، والمقاومة دونه، وجعل قريش البطاح، الخط الثاني لهذا الغرض نفسه، وبهذا التخطيط أمن قصي المفاجأة والمباغتة.

وبعد هذا الإجراء الذي يدل على ما كان في الرجل من الحنكة والذكاء، أبقى على الوظائف التي كانت في أيدي غير قريش العرب خاصة بالحج، كما كانت حتى لا تعاديه القبائل، وترشقه عن قوس واحدة، وذلك مثل الدفع بالناس من عرفة، فقد كانت تليها صوفة، والدفع بهم من مزدلفة فقد كانت تليها عدوان[3]... وهكذا.

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٥٠.

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٧١.

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١١٥.

ومن الإصلاحات التى تنسب إلى قصى، إنشاء الوظائف الشرفية التى هى السقاية والرفادة والحجابة واللواء[1]. ومعنى الوظيفة الأولى: جمع الماء وتوفيره للناس فى موسم الحج[2]. ومعنى الثانية: إعداد الموائد والأسمطة لضيوف الولى سبحانه، الوافدين إلى بيته للطواف به وأداء المناسك والشعائر عنده[3]. ومعنى الثالثة: رعاية البيت وتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود. يبقى اللواء: وهو الراية التى تتقدم الجنود المتوجهين إلى العدو لقتاله، وتأمين الأرض والعرض من خطره وشره.

وأضاف قصى إلى هذه الوظائف الأربعة وظيفة خامسة: هى الندوة [4]، وهى دار بناها الرجل لقومه وحظر على غيرهم أن يدخلها إلا إذا بلغ الأربعين من عمره، وقد كانت هذه الدار هى كل شىء فى حياة قريش، ففيها يتحدثون ويتشاورون، وفيها يبرمون عقود الزواج ومواثيق الأحلاف، ومنها تخرج قوافل التجارة وإليها تعود، وفيها تناقش مشكلات الحرب والسلم... إلى آخره [5].

ومن المؤرخين من يرى أن قصياً لم يستحدث سوى الندوة، أما الوظائف الأربعة الأخرى فإنها سابقة عليه، ذلك لأن مكة بلد حار والماء فيها قليل لا يكاد يكفى أهلها، وما يملكونه من الأنعام والماشية، وعليه فإن الضرورة تقتضى جمع الماء وتوفيره للحجيج

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٥٠.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٦٢.
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٢٠.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٧٠.
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ٥٠.

فى الموسم، وإلا لقتل الناس الظمأ، وكان سببا فى انصرفهم عن البيت.

والأمر كذلك بالنسبة للرفادة، فكثيرون من الحجيج كانوا يأتون مكة وليس معهم من الطعام ما يكفيهم وأمر ثان وهو أن قريشاً كانت تعتبر كل طعام يحمله الحجيج من خاج مكة نجس، عليهم أن يعدموه أو يتركوه خارج البلد الحرام حتى يعودوا إليه بعد أداء الشعائر والمناسك.

تبقى الحجابة: وهى تطهير البيت وحمل مفتاحه، ولا يعقل أن يكون التطهير مما استحدثه قصى، وقد سبق وعرفنا أن مفتاح الكعبة قد كان فى يد حليل بن حبشية [١]، أو أبى غبشان [٢]، ثم آل إلى قصى. وإذا كانت الضرورة تقتضى السقاية والرفادة والحجابة فإنها تقتضى اللواء أيضا، لأنه هو الذى يجمع الجند، ويوحد صفوفهم، وما أظن أن أحدا يقول إن الحرب لم يكن لها وجود قبل قُصى.

وسواء أصح هذا الكلام، أم أن استحداث قصى لهذه الوظائف هو الصحيح، فإن هذا الرجل العظيم قد عَمَّر مكة، ونقلها من البداوة إلى الحضارة. ويقول الرواة: إن قريشاً كانت تجل قصياً وتهابه [٣]، وتعتبر كلامه ديناً لا ينبغى لهم أن يخالفوه، ولا أن يقصروا فى تطبيقه وتنفيذه. ويقولون كذلك: إنه لما شرف

---

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٥٨.

(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٥٢.

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٧٠.

بنوه جميعًا وعزوا ما خلا عبد الدار فإنه أسند إليه الوظائف الشرفية كافة [1]، وهي السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة، وما أظن أن الرجل قد أسند هذه الوظائف إلى عبد الدار لهذا السبب، وإلا لكان كليل الذهن محدود الذكاء، فإن تنمية هذه الوظائف وحسن إدارتها إذا أنيطت بغير الكفء ضعفت ولم تأت أكلها شهية ناضجة.

والحق أن قصيًّا إذا كان قد آثر ولده عبد الدار، فإنه قد راعى سنَّه [2] ونشاطه ونضج تجاربه، وما وصفه بالخمول والكسل والتأخر عن إخوانه إلا افتياتًا عليه من الرواة، وجهلاً منهم بما فيه من سمات النجابة وعلامات التفوق.

***

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١١٩.

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٧٣.

أبناء قصي يتولون أمر مكة :

وغادر قصي هذه الحياة بعد أن حضر مكة، ودبر أمورها، ووضع مقاليد الوظائف الشرفية الخمس بين يدى ولده عبد الدار [١]، ولأن الرجل قد كان مهابا، وكان الكل يخشاه ولا يجترىء على معارضته، فإن إخوة عبد الدار قد استجابوا لما أراده أبوهم ولم يراجعوه فيه، فلما هلك ثاروا على أخيهم وطلبوا منه أن يجعل لهم نصيبا في الوظائف الشرفية، وأصر عبد الدار وبنوه على أن يبقى الحال كما كان في حياة قصي، أبى عبد مناف وعبد العزى وعبد قصي إلا نصيبهم [٢]، وانقسمت قريش بين الفريقين المتنازعين، فآزر بعضها عبد الدار وبنيه، وغمسوا أيديهم في الدم وتعاهدوا على القتال حتى يفوزوا أو يموتوا. وآزر البعض الآخر الإخوة الثلاثة وأبناءهم، وغمسوا أيديهم في الطيب وتحالفوا على أن يأخذوا نصيبهم من الوظائف الشرفية أو يهلكوا دونها، فسمى الفريق الأول الأحلاف، وسمى الثاني المطيبين [٣].

وأوشكت الحرب الأهلية أن تدور رحاها، لولا أن نفراً من حلماء قريش وعقلائها، مشوا بين الفريقين، حتى اصطلحا على أن تكون السقاية والرفادة من نصيب عبد مناف، وتكون الحجابة واللواء والندوة من نصيب عبد الدار [٤].

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٥٢.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٢٠.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٥٢.
(٤) سيرة ابن هشام ١ / ١٢٢.

وقد تسأل: ومن الذى كان يلى حكم مكة ويدير دفة الأمور فيها؟

والجواب: لقد كان ذلك لحكومة من قريش، كان يطلق عليها الملأ، وكانت هذه الحكومة تتألف من زعماء البطون العشرة، وأصحاب الحول والطول فيها، وكانت قراراتها لا تصدر إلا بإجماع من هؤلاء الأكابر والزعماء، وكان تنفيذ هذه القرارات ملزماً لمن أصدروها وأتباعهم، غير أن هذا اللزوم قد كان أدبياً، لأن هذه الحكومة لم تكن لديها القوة القاهرة لإجبار الداخلين تحت ظلالها على التطبيق والتنفيذ.

غير أن من كان يضع هذه القرارات دبر أذنيه وتحت قدميه، فإن قبيلته كانت تخلعه ويصبح صعلوكاً يعيش على السلب والنهب أو يعقد بينه وبين قبيلة أخرى حلفاً يحميه، ويؤمنه ويتيح له أن يضرب في الأرض دون خوف ولا رعب.

وقد ارتفع شأن البيت الحرام أثناء حكم قريش وحجابتها له، فكان العرب يأتون إليه من شتى أنحاء شبه الجزيرة، فيطوفون حوله ويؤدون مناسكه وشعائره[1]، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يمنعهم من زيارته مانع، وكان العرب يُجلّون قريشا من أجل ذلك، ولا تمتد أيديهم إلى تجارتها بسوء، وكانت تفخر هذه القبيلة على غيرها بأنها من ولد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وقد جعلت لنفسها

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٢٥.

امتيازات لم تجعلها لغيرها، منها أنها لم تكن تغادر الحرم في موسم الحج، وأن الحجيج لا يطعمون داخل مكة إلا من طعامها الذى تقدمه لهم، إما قرى، وإما بالثمن [1].

وكذلك الثياب فإن الحجيج كانوا إذا دنوا من البلد الحرام صار طعامهم نجساً وثيابهم كذلك، وهم مخيرون بين أن يشتروا الطعام والثياب من داخل مكة، أو أن يظلوا عرايا جائعين حتى يخرجوا منها. وهذا هو السر فى أن بعضهم كانوا يطوفون حول الكعبة عرايا، حتى النساء، فإن بعضهن كن يؤدين المناسك مجردات، وكانت المرأة تضع على مكان السوأة المغلظة منها شيئاً من ورق الشجر، وقد ألغى الإسلام هذا كله، وسوى بين الجميع فى مناسك الحج.

تبع أبو كرب يعظم الكعبة :

وقد وقعت إبان الحكم القرشى فى مكة أحداث أظهرت مكانة البيت الحرام، وبيَّنت منزلته عند صاحبه، وكيف أنه سبحانه كان يدافع عنه ويرد كيد خصومه وأعدائه، ويهيئه لاستقبال نبى آخر الزمان الذى سيكون مولده على كثب منه، وابتداء دعوته فى حرمه.

ومن هذه الأحداث ما سجله الإخباريون ورواة التاريخ من أن تبعا أسعد أبا كرب قد غادر اليمن فى جيش كثيف للقاء أعدائه،

---

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٧٨.

وقد مر وهو فى طريقه على يثرب [١] «المدينة المنورة» فلم يعرض لها ولا أهاج أهلها، غير أنه ترك أحد أولاده فيها فقتل [٢] غيلة، وبلغ الملك الخبر المشئوم فأقسم ليقتلن أهلها، وليحرقن نخلها، وليهدمن دورها [٣].

ولما أتى المدينة المنورة، وأراد أن يبر قسمه، خرج إليه حبران من بنى قريظة، كانا على علم وتقى، وقالا: أيها الملك، لا تفعل ما كنت قد عقدت الخناصر عليه. قال: ولم؟ قال الحبران: لأنها مهاجر نبى سيأتى إليها هو وصاحبه من حرم الله الآمن. قال الملك: وما حرم الله الآمن؟ قالا: مكة التى خلقها الله يوم خلق السموات والأرض، وبنى فيها أول بيت وضع للناس قال الملك: وما الذى سيكون إذا أنا خربت مدينتكم هذه؟ قال الحبران: ترد عنها، ويعاقبك الله الذى لا يغلبه غالب، ولا يصمد لبأسه ملك [٤].

واقتنع أبو كرب وولى وجهه نحو بلاده، ولما بلغ عسفان جاءه نفر من هزيل، ورغبوه فى هدم البيت الحرام، وسلب ما فيه من الجواهر واليواقيت، ومازال هذا النفر يغريه حتى أوشك أن يقصد مكة ويهدم الكعبة [٥]، وأرسل إلى الحبرين ليعرف رأيهما فيما عزم عليه، فخوفاه وحذراه، وأكدا له أن هذا البيت الذى يريد سلبه

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٦، ١٧.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ١٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١ / ٢٤٤.
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ١٠.
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠.

وهدمه ممنوع من كل من أراده بسوء، وأنه ما من جيش زحف إليه إلا شتته الله، وجعله أحاديث، ومزقه كل ممزق [١].

وأرهبت هذا التبع كلمات الحبرين، فيمم وجهه نحو الكعبة، وهو عازم على أن يصنع عندها ما يصنعه أهلها، فيطوف بها، ويعظمها ويكرمها، ويحلق رأسه عندها [٢].

ويقول الرواة: إنه قد أقام في مكة ستة أيام ينحر الجزر، ويسقى العسل [٣] حتى أشبع الإنسان والحيوان والطير. وقد رأى في منامه من يأمره أن يكسو البيت الحرام، فكساه الخصف، فرأى في منامه أن يكسوه خيرا من ذلك، فكساه المعافر، فرأى في منامه من يأمره أن يكسوه خيرا من ذلك، فكساه الوصائل[٤]، وجعل له بابا ومفتاحا، وانصرف إلى بلاده [٥].

وقد سجل الشعراء هذا الحدث، فقالت سبيعة بنت الأحب، تذكر ولدها خالد هذه الوقعة، وتستخلص له منها العظة والعبرة[٦]:

ابنى لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير

واحفظ محارمها بنى ولا يغرنك الغرور

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ١١.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ١١.
(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٢١.
(٥) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٨٠.
(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٢٢، سيرة ابن كثير ١ / ١١

ابنى من يظلم بمكة
يلق أطراق الشرور
ابنى قد جربتها
فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما
بنيت بعرصتها قصور
والله أمن طيرها
والعصم تأمن فى ثبير
ولقد غزاها تبع
فكسا بنايتها الحبير
وأذل ربى ملكه
فيها فأوفى بالنذور
يمشى إليها حافيا
بفنائها ألف بعير
ويظل يطعم أهلها
لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى
والرحيض من الشعير

ومع ارتيابى فى جاهلية هذا الشعر ونسبته إلى صاحبته، فإنه يصور عقيدة العرب فى البيت الحرام، وكيف أنه محمى من قبل المولى سبحانه وتعالى، وأنه لا يعتدى عليه جبار مهما كانت قوته وبطشه إلا أحنى الله رأسه، وجدع أنفه، وبدد آماله وأحلامه.

***

حملة أبرهة لهدم الكعبة:

وليس أدل على هذا مما وقع لأبرهة الأشرم، نائب النجاشي على اليمن [١]، فإنه بنى القليس [٢]، وهي كنيسة ضخمة عالية البناء، فسيحة الأرجاء، وسخر في تشييدها أهل اليمن حتى إن أحدهم كان إذا أتى إلى عمله بعد طلوع الشمس اعتبره قد تأخر، وأراق دمه أمام إخوانه وزملائه [٣].

ويقول الرواة: إن أبرهة نقل رخام هذه الكنيسة وفسيفساءها من الصرح الذي كان سليمان قد شيده للملكة سبأ [٤]، ولما كمل بناء الكنيسة زينها أبرهة باللآلىء واليواقيت، ووضع فيها منابر من الفضة، وأخرى من الذهب [٥]، وكتب إلى النجاشي في الحبشة كتابا يقول له فيه: إني قد بنيت لك كنيسة ليس على ظهر الأرض مثلها، وإني سوف أصرف حجيج العرب إليها [٦]، وذاع هذا الكتاب وانتشر في قبائل اليمن، ومنها إلى القبائل الضاربة في الشمال،فمضى أحدهم زار الكنيسة وأحدث فيها [٧] وبلغ الخبر أبرهة فاشتاط غضباً، وأقسم ليهدمن الكعبة، وحشد جنده من أهل الحبشة، وجمع لهم ما قدر عليه من السلاح والشكة وولى وجهه نحو الكعبة [٨].

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٨٢
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ١٦
(٤) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٨٤
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ١٦
(٦) ابن الأثير: الكامل ١ / ٢٦٠
(٧) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٨٥
(٨) سيرة ابن كثير ١ / ١٦

وعلمت العرب ما أجمع عليه الملك وما أعده من آلات الحرب، وأدوات القتال، فأكبروا ذلك وأعظموه وقرر ذو نفر أن يتصدى له، وخرج فيمن أطاعه، غير أنه ما لبث أن أخفق، ودارت عليه الدوائر، وأخذ بعد هزيمته أسيراً، وأراد الملك ضرب عنقه، فقال له: أيها الملك لا تقتلني، فعسى أن يكون بقائي خيراً لك من قتلي، وكان أبرهة رجلا حليما، فأوثقه وعفا عنه [١].

ومضى في طريقه، حتى إذا اقترب من خثعم برز إليه نفيل بن حبيب، على رأس شهران وناهس، وهما الفريقان اللذان كانت تتألف منهما خثعم، وكما انهزم ذو نفر وأسر، وبقي في القيود والأغلال بعد العفو عنه، فقد لقي نفيل بن حبيب هذا المصير نفسه، إلا أنه عرض على أبرهة أن يكون دليله في أرض العرب فقبل ذلك منه [٢]، ومضى حتى بلغ الطائف خرج له مسعود بن معتب في رجال ثقيف [٣] وقالوا له: أيها الملك إنا سامعون مطيعون لك، وإننا نعلم أنك لا تريد اللات وإنما تريد الكعبة، وإنا سوف نبعث معك من يهديك إلى هذا البيت، وبعثوا معه أبا رغال، غير أنه لم يعش طويلاً، فقد وافاه أجله عند المغمس، فرجم العرب قبره لسوء صنيعه، وخيانته لأهل جنسه وملته [٤].

وهذا الرجل هو ما يعنيه جرير الشاعر في قوله [٥]:

(١) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٨٧
(٢) ابن الأثير: الكامل ١ / ٢٦٠
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٤١
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ١٦، ١٧
(٥) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٨٧

إذا مـات الـفـرزدق فـارجـمـوه
كـمـا يـرمـون قـبـر أبـي رغـال

ومن هذا المكان نفسه بعث أبرهة الأسود بن مفصود يتحسس له الأخبار، فمضى حتى أتى مكة، وأخذ أموال قريش وغيرها من قبائل تهامة، واستاق مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم [1]، وهمت قريش وكنانة وهذيل بإشعال الحرب، غير أنهم ما لبثوا أن أداروا ظهورهم لهذه الفكرة لأنهم لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده من أهل الحبشة [2].

وبعث الملك حناطة الحميري، وأمره أن يأتي مكة ويسأل عن سيدها، فإذا وجده قال له: إن الملك لا يريد حربكم، وإنه لا حاجة له في سفك دمائكم، وإنما هو يريد هذا البيت، فإن لم تقاتلوه تركم ومضى، حتى إذا هدم البيت انصرف عنكم، ولن يرزأكم في أنفسكم ولا في نسائكم وزراريكم، وأضاف الملك يقول: فإن أخبرك سيد هذا البلد أنه لا يريد الحرب فاصحبه حتى تأتيني به[3].

ولما سأل حناطة عن سيد مكة، دل على عبد المطلب بن هاشم، فأتاه وأبلغه رسالة الملك إليه، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه [4].

(١) ابن الأثير: الكامل ١ / ٢٦٠
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٤٠
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٧
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ١٧

فقال حناطة : فقم معي حتى تأتي الملك ، فإنه أمرني أن أحضرك إليه إذا كنت لا تريد الحرب ، ولا ترغب في القتال ، وقبل عبدالمطلب ، وخرج في بعض بنيه حتى أتى ذا نفر في محبسه ، وطلب منه أن يتوسط له لدى الملك حتى ينصرف عما عزم عليه ، فأجاب الرجل : وماذا عسى أن تأمل في أسير بين يدى الملك ، إن شاء أبقاه ، وإن شاء ضرب عنقه [1] ، ومع هذا فإن بيني وبين أنيس سائس الفيل صداقة ، وإنه أثير لدى أبرهة ، وسأكلمه أن يبذل جهده في تحقيق ما تريد .

وكلم ذو نفر أنيس كما وعد ، وألح عليه في أن يبذل ما في استطاعته لصالح سيد مكة [2] . وأرسل الملك إلى عبد المطلب وكان وضيئا وسيما ، فلما رآه أكبره ونزل عن سريره وجلس إلى جانبه على البساط وقال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن ترد إلَيَّ إبلي التي استاقها الأسود بن مفصود .

فقال له الملك : لقد أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ، تسألني الإبل ، وتترك البيت الذى هو دينك ودين آبائك . قال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه . قال أبرهة : ولكنه لا يمنعه مني قال عبد المطلب : فافعل إذن ما بدا لك [3] ، ومضى حتى أتى قريشاً ، فطلب منهم أن يغادروا مكة ، ويتحرزوا بالجبال [4] ، وأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قومه ،

(١) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٨٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ١ / ٢٦١ .
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٤٤ .
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ١٨ .

وراح ينشد قصيدة جاء فيها [1] :

لا هـــم إن الـــعــــبـــد
يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم
ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم
وقبلتنا فأمر ما بدالك

وقد يثير تعجبك هذا الموقف السلبي من زعيم قريش وسيدها ، فتسأل : ما الذي دعاه وهو العربي الأبي إلى تخليه عن البيت ، وتنصله من الدفاع عنه ؟ ولِمَ لمْ ينسج على منوال ذي نفر ، ونفيل ابن حبيب ، ومسعود بن معتب ؟

والجواب : أن عبد المطلب لم يكن سلبيًا ، ولا كان أقل جرأة وشجاعة من صاحب خثعم ، وصاحب ثقيف ، فقد أفزع الملك وأرهبه ، وأخبره أنه لا يقاتل ملكا مثله يَقْهر ويُقْهر ، ويَغلب ويُغلَب ، وإنما يقاتل الله الذي لا تدفع إرادته ، ولا يطيش سهمه ، ولا تقف في وجهه قوة في الأرض ولا في السماء [2] ، وقد أظهر الواقع أن الحرب لم تكن متكافئة ، وأن القوة لم تكن متساوية .

فقد أمر أبرهة جنده أن يتوجهوا إلى البيت ، ويعملوا فيه المعاول

(١) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ٨٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ١ / ٢٦١ .

والفئوس، حتى ينقضوه حجرا بعد حجر [١]، وإذا الفيل الذى كان دليل قوته وجماع عدته، يجفل من التوجه نحو الكعبه، ويجنح عنها ذات اليمين وذات الشمال [٢]، وإذا الطيور الأبابيل تصيح من حول الملك وجنوده، وتغطى السماء من فوقهم، وإذا حجارة تتساقط عليهم من مناقيرها وأرجلها، فتخدش رؤوسهم، وتدمى أجسامهم وتجعلهم هشيما تذروه الرياح [٣]، حتى تقذفهم فى عباب البحر : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل* ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾ [٤].

وواضح من هذه السورة، أن عبد المطلب لم يكن سلبيا فى حديثه إلى أبرهة، وإنما كان إيجابيا، يقول الحق ويقرره من غير وجل ولا خوف، لقد أخبر الملك أن المعركة بينه وبين ربه [٥]، وليست بينه وبين ملك مثله، وأنه إذا أوقد نارها، وأدار رحاها، فإن الدائرة لن تدور إلا عليه، وأن كفة الحرب لن تميل لصالحه، وما هو إلا أن أشعل أبرهة الثقاب، حتى تجرع الردى، وذاق العذاب، ولم يعد من جنده إلى بلادهم إلا فل أنهكه المرض، وأضناه الألم، واحتسى مرارة الموت وهو على قيد الحياة [٦].

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٩٠ .
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ١٨ .
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٤٧ .
(٤) سورة الفيل . الآيات : ١ - ٥ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ١ / ٢٦١ .
(٦) سيرة ابن كثير ١ / ١٨ ، ١٩ .

وأما أبرهة فقد راح جسمه يتساقط عضواً إثر عضو، وجانحة بعد جانحة، ولم يلق ربه حتى انصدع صدره عن قلبه [1]، وما ظلمه الله ولكنه هو الذى ظلم نفسه، فهو الذى أقسم ليهدمن البيت الحرام، وهو الذى حشد جيشه، وأعد عدته لتحقيق ما يهوى [2]، وإدراك ما يقصد.

ولقد حذره عبد المطلب فما ارعوى، وخوفه بطش ربه فما أثنى عن غايته ولا أبعد عن هدفه، وما أعده الله له فى الآخرة أنكى وأشد.

وقد سجل الشعراء هذا الحدث العظيم، وأنشدوا فيه القصائد والأراجيز، ومما حفظه الزمن من هذه الأشعار، قول نفيل بن حبيب[3]:

ألا حييت عنا يا ردينا

نعمناكم مع الإصباح عينا

ردينة لو رأيت ولن تريه

لدى جنب المحصب ما رأينا

إذًا لعذرتنى وحمدت أمرى

ولم تأسى على ما فات بينا

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٤٨

(٢) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٩٠

(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٩١

حمدت الله إذ عاينت طيراً

وخفت حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفيل

كأن عليَّ للحبشان دينا

وقول أبي الصلت ربيعة بن أبي ربيعة [1]:

إن آيات ربنا ثاقبات

ما يمارى فيهن إلا الكفور

خلق الليل والنهار فكل

مستبين حسابه مقدور

ثم يجلى النهار رب رحيم

بمهاة شعاعها منشور

حبس الفيل بالمغمس حتى

صار يحبو كأنه معقور

حوله من ملوك كندة أبطال

ملاويث في الحروب صقور

خلفوه ثم ابذعروا جميعاً

كلهم عظم ساقه مكسور

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٥٣.

كل دين يوم القيامة عند الله

إلا دين الحنيفية بور

وقول عبيد الله بن قيس الرقيات [1]:

كاده الأشرم الذى جاء

بالفيل فولى وجيشه مهزوم

واستهلت عليهم الطير

بالجندل حتى كأنه مرجوم

ذاك من يغزه الناس

يرجع وهو فل من الجيوش ذميم

وواضح من القصيدة الأولى: أن نفيل قد حرص على تسجيل بحث الحبشان عنه وندائهم إياه، وقد نال منهم الطير الأبابيل ليخرجهم من الحجاز ويدلهم على بلادهم، حتى يبعدوا عن الهول الذى أحدق بهم، والعذاب الذى صب عليهم [2].

وواضح من القصيدة الثانية :أن أبا الصلت ربيعة ابن ربيعة قد أذهله عجز الفيل عن التوجه إلى البيت لهدمه [3]، فسجل هذا الحدث، وبين كيف أن ملوك كندة وأبطالها قد تخلوا عنه، وتجرعوا كئوس الهزيمة، ولم تستطع قوة فى الأرض ولا فى السماء أن تعصمهم من بأس الله، ولا أن تجيرهم من انتقامه وبطشه.

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٢١.

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٤٧.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ٩٠.

وواضح من الثالثة: أن عبد الله بن قيس الرقيات قد أثر فيه الموقف كله عن كيد أبرهة، وعقده الخناصر على هدم الكعبة، وكيف أنه انهزم وغادر ساحات المعركة، وهو يعض على أصابعه من الحسرة على ما كان، والحزن على ما وقع، وكيف أن الطيور قد طفقت تهاجمه وجيشه، وترميهم بحجارة من سجيل [1]، حتى هلك أكثرهم، وبقي منهم فل ليحكي لأهل بلده ما أصابهم وما صب من السماء عليهم، وكيف أنهم قد تحدوا الله، ففض جمعهم، وأفنى كتائبهم، وجعلهم أحاديث ومزقهم كل ممزق.

ويقول الرواة: إن الله تعالى قد طهر مكة منهم، فأرسل عليهم ريحا، أو بعث إليهم سيلا حمل جثثهم، ومضى حتى ألقاها في البحر [2]. ويقول الرواة كذلك:

إن الحصبة والجدرى قد ظهرا عقب هذا الحادث في أرض الحجاز، ولم يكونا قد ظهرا فيها من قبل، ووجدت الأشجار المرة من الحنظل والحرمل وغيرهما، ولم يكن لها وجود في هذه الأرض كذلك [3].

وقد تسأل: وكيف ينصر الله أهل مكة وهم وثنيون، على أهل اليمن وهم أصحاب ملة سماوية؟

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١ / ٢٦٢.

(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٢٠.

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٤٨.

والجواب: أن الله تعالى قد حمى بيته، ومنع حرمه، على الرغم من وثنية قريش وغيرها من قبائل العرب، لأنه سينزل فى هذا البلد الحرام شريعة الإسلام، ويبعث من أهله محمداً عليه الصلاة والسلام، وأن الوثنية سوف لا تبقى فى مكة ولا فى غيرها من بلاد العرب إلا قليلا، ثم تشرق شمس التوحيد، حتى إذا ملأت ربوعها وانتشرت فى أقاصيها وأدانيها، أرسلت أقباسها إلى ما حولها من البقاع فأنارتها بعد ظلمة وأيقظتها بعد رقود دائم ونوم طويل.

***

الفصل الرابع
«مكة فى عصر النبى محمد عليه الصلاة والسلام»



عبد المطلب يحفر زمزم :

ومنذ هذه الوهلة والأحداث تتوالى على البلد الحرام، والبيت الحرام، مشيرة إلى أن أمراً عظيماً سيقع وأن نبأً ميموناً سيكون، وأن تغييراً جليلاً سيطرأ على هذه الدنيا، فيبدل حالها، ويملأها براً وخيراً، بعد أن ملئت بغياً وجوراً.

وأول هذه الأحداث ما وقع لعبد المطلب بن هاشم، جد النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه، فقد رأى فى منامه من يقول له: احفر طيبة. فقال: وما طيبة؟ فتركه وعاد إليه فى الليلة الثانية وقال له: احفر برَّة. فقال له: وما برَّة؟ فتركه وعاد إليه فى الثالثة وقال له: احفر المضنونة فقال له: وما المضنونة؟ فذهب عنه، وأتاه فى الليلة الرابعة وقال له: احفر زمزم فقال: وما زمزم؟ فكرر عليه ما كان قد دعاه إليه وقال: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لن تندم، وهى تراث من أبيك الأكرم لا تنزف أبداً ولا تزم، تسقى الحجيج الأعظم [1]، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر بمنعم، تكون ميراثاً وعقداً محكماً، ليست لبعض ما قد تعلم، وهى بين الفرث والدم [2].

ومع اندهاش عبد المطلب واستغرابه، فإنه لم يدع الهاتف حتى سأله عن مكان هذه العين [3]، وقد كان يعلم أنها هى عين أبيه

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٢ / ٢٥.
(٢) السيرة الحلبية ١ / ٥٢
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٣٢.

إسماعيل، وأمه هاجر، وأن جرهم قد طمرتها، ومحت رسومها قبل مغادرتها مكة إلي اليمن. وأجابه وهو يعدو، عند قرية النمل، حيث ينقر الغراب غداً [١].

وخرج عبد المطلب ومعه ابنه الحارث، ومولاه أصرم وهو عازم على إنجاز المهمة التى بها أمر، حتى أتى قربة النمل، وكانت بين إساف ونائلة، ورأى بعينه الغراب وهو يضرب بمنقاره المكان المحدد له [٢]، فرفع معاوله وبدأ الحفر، وخرجت قريش إلى نواديها كما هي العادة، على كثب من الكعبة، فرأت عبد المطلب وما يصنع، فقالوا له: إنا لن ندعك تحفر بين إلهينا هكذا، في المكان الذى ننحر فيه، فكف عما تفعل [٣]، فقال: لقد أمرت، وما يسعنى أن أكف، وطلب من ولده الحارث أن يدفعهم عنه حتى يمضى لما هو له، وأمام عزمه وإصراره لم تجد قريش بداً من تركه، وما هى إلا ساعات حتى ظهر الطمى فكبر [٤]، فعلمت قريش أنه قد وجد العين، ومضى عبد المطلب فى الحفر حتى عثر على غزالتين ذعبيتين، ورماح ودروع [٥]، فتابع الحفر حتى انبجست العين. وكأن لمائها طعم يختلف عن طعم المياه التى كانت فى آبار مكة [٦].

وبلغ قريشاً خبر الكنز والعين، فجاءوا إلى عبد المطلب وقالوا له:

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٨٥.
(٢) السيرة الحلبية ١ / ٥٣.
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٣٣.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٨٣.
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١٣٥.
(٦) سيرة ابن كثير ١ / ٨٧.

إنك تعلم أن هذه عين أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها وفي الذهب والسلاح حقـًا وإنا لن نكف عنك حتى نأخذ نصيبنا من هذا كله[1]. فقال عبد المطلب: لا والله لا أعطيكم شيئـًا مما تطلبون، فإن العين عيني، وإن الكنز كنزي، وإن شئتم ضربنا عليهما القداح، فمن خرج قدحه على شيء أخذه، قالوا: أنصفت. فجعل للكعبة قدحين أصفرين، وجعل لنفسه قدحين أسودين، وجعل لقريش قدحين أبيضين. وجاء صاحب القداح فضرب عليها، فخرج الأصفران على الغزالتين، وخرج الأسودان على السلاح والعين، وطاش قدحا قريش فلم يخرجا على شيء[2].

فصنع عبد المطلب من السيوف والدروع بابا للكعبة، وجعل له صفائح من الغزالتين[3]، وكان هو الذي يتولى سقاية الحاج بعد عمه المطلب، وكانت قد آلت إليه من هاشم بن عبد مناف.

وظلت السقاية في يدي عبد المطلب حتى آلت بعد موته إلى ولده أبي طالب، فاحتاج إلى المال لتوفير الماء للحاج في الموسم، فاقترض عشرة آلاف من أخيه العباس، وعجز عن أدائها له، واحتاج إلى قرض آخر لإنجاز المهمة نفسها في الموسم، فاشترط عليه إن هو لم يستطع أداء دينه تنازل له عن السقاية[4].

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٥٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٢ / ٢٢٧.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٨٥.
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٨٨.

وهكذا خرجت هذه المكرمة إلى العباس بن عبد المطلب، ومنه إلى ولده عبد الله، فولده على، فولده داود، فأخيه سليمان، فأخيه عيسى، ثم آلت إلى أبى جعفر المنصور الذى استتاب عليها مولاه أبا رزين [1].

ومن الرواة من يقول: إن قريشاً لما نازعت عبد المطلب على العين احتكم وإياهم إلى عرافة من بنى سعد بن هذيم [2]، وكانت تقيم على كثب من يثرب.

وخرج عبد المطلب فى فتيان من بنى مناف ومعه وفود قريش، وبين البوادى الموحشة، التى كانت تفصل بين مكة والمدينة، ظمأ عبد المطلب ورجاله، وطلبوا الماء من وفود قريش، فأبوا عليهم وقالوا لهم: إننا نخشى أن نصير إلى مثل ما أنتم عليه. ولما اشتد الظمأ بعبد المطلب ومن معه، اقترح عليهم أن يحفر كل واحد منهم لنفسه حفرة، وينزل فيها، فإذا قتل أحدهما الظمأ أهال سائرهم عليه التراب، حتى يواروا جثته، وهكذا حتى الأخير، فإنه وحده هو الذى يبقى من غير الدفن [3].

واستعد القوم لتنفيذ هذا الاقتراح، غير أن عبدالمطلب ما لبث عرض عليهم اقتراحاً آخر، وهو أن يقوموا من فورهم ويسيروا،

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٢ / ٢٢٨.

(٢) طبقات ابن سعد١ / ٨٤.

(٣) سيرة ابن هشام١ / ١٣٤.

فلعل الله أن يرزقهم الماء، أو يهديهم إلى مكانه، وقام هو إلى فرسه يمتطيه غير أنه لم يكد يضع يده عليه حتى انبجست عين ماء على كثب منه، فكبر الرجل وكبر رجاله، وشربوا وملأوا أوعيتهم، وفعلت وفود قريش مثل ذلك، وقالوا: عد بنا يا عبدالمطلب، فما عدنا فى حاجة إلى الكاهنة، فإن الله قد حكم لك، وإن الذى فجر لك هذه العين فى هذا المكان القفر هو الذى فجره لك فى مكة (١).

وسواء أصح هذا الخبر أو لم يصح، فإن العرب جميعا كانوا يجلون عبدالمطلب، ويسمونه إبراهيم الثانى، لأن عودة زمزم قد كانت على يديه (٢)، ونجاة الكعبة من بطش أبرهة وكيده كانت على يديه كذلك (٣).

***

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٨٤.

(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٨٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٤٤.

الذبيح الثاني :

وآية ثالثة لا سبيل إلى إغفالها، ولا إلى غض الطرف عنها، وهي محاولة عبدالمطلب ذبح ولده عبدالله [1]، وصرف الله له عن ذلك، كما كان الحال بالنسبة لإبراهيم، وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

وابن إسحاق وغيره يروون هذه القصة فيقولون :إن قريشا لما نازعت عبدالمطلب أثناء حفر بئر زمزم، أعطى الله نذراً لئن رزقه عشرة من الذكور يدافعون عنه، ويقاتلون دونه ليذبحن أحدهم عند باب الكعبة [2]، ولما أجاب الله سؤاله، وحقق آماله، ورزقه الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبا لهب، والعباس، وأبا طالب، وعبد الله، جمعهم في مكان واحد، وحكى لهم ما كان منه بعد منازعة قريش له، وسألهم الرأى. فقالوا كلهم :يا أبانا، نحن أبناؤك، وطوع أمرك، وما نرى إلا أن تفي بنذرك [3].

وتحير الرجل فيمن يختار لقطع خيط نفسه، وكلهم عنده سواء، وبعد تفكر وتأمل هداه الله إلى هذا الاقتراح، وهو أن يعطى كل واحد منهم قدحا ويكتب عليه اسمه، ويضرب على هذه القداح عند هبل، فمن خرج قدح نفذ فيه نذره [4]، وقد خرج قدح عبدالله، وكان أصغر إخوته وأحبهم إلى أبيه،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢ / ٢٢٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٨٨ .

(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٨٨ .

ومع هذا فإن عبدالمطلب أخذه والسكين في يده، ومضى حتى أتى المكان الذى تنحر فيه قريش، بين إساف ونائلة [١].

وأقبل القرشيون يذفون حتى وقفوا أمامه وقالوا: لا تذبح ولدك هذا، وافعل كل شيء حتى يرضى ربك، فإنا نخشى أن تكون عادة، فيأخذ الأب ولده ويريق دمه [٢].

وبكى نساء عبد المطلب، ورحن يصحن على عبد الله، وجاء ولده العباس فانتزعه من تحت رجليه، وكان قد وضعها عليه ليتمكن من ذبحه [٣]، وبعد أخذ ورد انتهى القوم إلى تحكيم كاهنة كانت تقيم فى خيبر، وكان لها تابع يأتيها كل يوم بما تسمعه الشياطين من الملائكة فى السماء [٤].

ولما قص عبدالمطلب على كاهنة خيبر القصة من البداية حتى النهاية طلبت من القوم أن يتركوها اليوم ويأتوها غدا، حتى يخبرها تابعها بما ينبغى أن تفعله [٥]، ولما عادوا إليها سألت القوم: كم الدية فيكم؟ قالوا عشرة من الإبل. قالت فاضربوا عليها وعلى عبدالله بالقداح، فإن خرجت عليها فانحروها وأطعموا لحمها الإنسان والحيوان والطير، وإن خرجت على عبد الله فزيدوا عليها عشرة بعد عشرة حتى يرضى ربكم [٦]، وعاد القوم إلى مكة وضربوا

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٨٥.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٤١.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٨٩.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٢ / ٢٩.
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٢.
(٦) سيرة ابن كثير ١ / ٨٩.

بالقداح على عبدالله وعشرة من الإبل، فخرجت القداح على عبدالله، فراحوا يزيدون عليها عشرة بعد عشرة، حتى بلغت مائة، فخرجت على الإبل [١] فكبر القوم وهللوا وقالوا: يا عبد المطلب، لقد رضى ربك، ونجا ولدك، فقم وانحر الإبل ولا تمنع منها أحدا. فقال عبدالمطلب: لا، والله حتى أضرب عليها وعليه ثلاث مرات [٢].

وبعد أن تكرر خروج القداح على الإبل قام عبد المطلب وبنوه ونحروا الجزر، وأطعموا الإنسان والحيوان والطير [٣].

وهكذا أعاد الرجل وولده سيرة أبيهما إبراهيم وإسماعيل، وكانت هذه الآيات الثلاث التى أجراها الله على يد عبد المطلب، أذاناً بظهور الحدث الأكبر وهو مولد محمد النبى صلوات الله وسلامه عليه.

وما أشك فى أن مكة قد سرها خروج القداح على الإبل، ونجاة عبد الله بن عبد المطلب، الذى كان آنذاك فى ميعة الصبا وأول الشباب. فقد كان سنه ثمانى عشرة سنة، وكان آخر أولاد أبيه من الذكور فى ذلك الحين [٤].

***

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٨٩.
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٨٩.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٨٩.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٨٩.

زواج عبد الله :

ويبدو لى أن عبد المطلب قد كان غير راض عن ترويع ولده هذا وجره إلى المذبح ليقطع خيط نفسه فيه، لكنه كان مضطراً للنذر الذى نذره، ولأن الأقداح قد خرجت عليه [1]، ومن أجل هذا فإنه فكر طويلاً فى أن يمسح الهم عن قلبه ويخرج الأسى من أعماق نفسه، ويريه من مباهج الدنيا ومسراتها أضعاف ما رآه من كوارثها وأرزائها، فعزم على أن يختار له من عقيلات قريش، وصواحب الشرف والجمال فيها، عروساً تسعده وتشرح صدره، وتملأ الوجود أنساً وبهجة من حوله.

وذهب إلى وهب بن زهرة، وهو من هو فى سخائه وشرفه ومروءته ونسبه، وخطب ابنتيه آمنة وهالة، أما الأولى فلولده، وأما الثانية فلنفسه [2]، وما له لا يتزوج هو الآخر، وقد قاسى من الأسى والحزن مثل ما قاسى عبد الله أو أكثر.

فلم يكن جره ولده ليذبحه سهلاً عل قلبه، ولا كان وضع السكين على حلقه أمراً يسيراً فى شعوره وحسه، لقد كان كبده ينزف وكان فؤاده يتقطع، ولو أن إنساناً غيره كان هو الذى عدا على ولده عبدالله لدفع روحه فداء له، وأسال دمه دفاعاً عنه.

فليتزوج إذن عبد الله وأبوه من بيت واحد [3]، وليدخلا على

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢ / ٢٩.   (٢) طبقات ابن سعد ١ / ٩٤، ٩٥.

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٩٥.

عروسيهما في ليلة واحدة، ولتملأ الأفراح كل بيت في مكة، ولتغمر كل سهل وكل جبل فيها، ولتنحر الأنعام على اختلاف أنواعها، ليشارك في هذه الأفراح سباع الحيوان، وسباع الطير، فلو هلك عبد الله لهلك العالم كله، ولو أحيى لحيت الحياة من أدناها إلى أقصاها، لكن الله حفظه لينجب من يهدى الإنسانية سبلها ويرفع عنها أغلالها وقيودها، ويخرجها من ظلمات الفوضى والجهل إلى أنوار النظام والعلم، ومن العبودية والعنصرية إلى المساواة والحرية، ومن الخوف والجوع إلى العيش الرافه والحياة الآمنة الرضية.

وزُف عبد الله إلى آمنة، وزُف أبوه إلى هالة [1]، وخيل لقريش أن السعادة التى غمرت بيت عبد المطلب ستبقى وتستمر، وأن الدهر الذى عبس فى وجهه سيظل مشرق المحيا، متهلل الأسارير، غير أن هذه الظنون قد كانت سراباً، ما لبث أن انقشع وتبدد فلم يكد يمضى على عرس عبد الله سوى أيام قليلة، حتى طلب منه أبوه أن يذهب إلى المدينة ويمتار لهم منها تمراً، وفى رواية ثانية أن إحدى القوافل التجارية قد أزمعت التوجه إلى الشام فخرج معها عبد الله [2].

وسواء أصحت هذه الرواية أم كانت الرواية السابقة هى الصحيحة، فإن عبد الله بن عبد المطلب قد غادر مكة إلى يثرب،

---

(١) سيرة ابن كثير: ١ / ٩١.

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٩٩، السيرة الحلبية ١ / ٨١.

أو إلى الشام، ولما قضى حاجته وآب راجعاً إلى بلده أصابه المرض، واضطره إلى البقاء في يثرب عند أخواله من بنى النجار [1]، وكان هاشم بن عبد مناف قد تزوج منهم امرأة كانت تدعى سلمى، وأنجب منها شيبة الحمد، وهو عبد المطلب [2].

وقد لقى عبد الله حتفه في بيوت أخواله هؤلاء، فغسلوه ودفنوه، ولما عادت القافلة، سأل عبد المطلب كبيرها عن ولده عبد الله، فقال له: لقد اشتد عليه وطأة العلة، فآثر أن يمرض في بيوت أخواله، فلم نقف دون تنفيذ رغبته خوفاً عليه أن يهلك في الطريق.

وعلى الفور أرسل عبد المطلب أحد أبنائه إلى يثرب للسؤال عن أخيه، فأخبر هناك أنه قضى [3]، وأنهم واروه التراب.

وكم كان حزن عبد المطلب وهو يسمع هذا الخبر [4]، لقد هزه الأسى، وغير لونه الأسف، وراح يستعرض ذكريات ولده معه، وكيف أنه قد روعه وأفزعه، وأجال السكين على حلقه، ولولا بكاء إخوته ونوحهم، ووقوف قريش كلها دون إسالة دمه، لقطع خيط نفسه [5].

ولم يكف عبد المطلب عن تفجعه وتحسره حتى جاءه الخبر أن

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٨١.
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٨٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٢ / ٢٤٢.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٩٩.
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ٨٩.

ولده لن ينقطع ذكره، ولن يختفى أثره، فقد حملت زوجه آمنة [1] وما هى إلا شهور معدودة حتى تضع، ومن يدرى فلعل الله عز وجل يعوضه عن ولده غلاماً زكياً، تقر به عينه، ويستريح لرؤيته قلبه، ويجد فيه ريح أبيه كلما شمه أو ضمه.

وما أشك فى أن عبد المطلب قد راح يدعو ربه، ويضرع إليه أن يهبه ولداً بدلاً من ولده الذى مضى، وهو فى ربيع حياته وريق شبابه، وميعة صباه.

وكلما دنا زمن الولادة كلما ألح الرجل فى الرجاء وأمعن فى الدعاء، وكم كانت سعادته حين جاءه البشير، فقد هرول مسرعاً إلى آمنة، وهنأها على سلامتها، وأخذ الغلام ومضى حتى دخل الكعبة [2]، وراح ينشد أبياتاً جاء فيها [3]:

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان
حتى أراه بالغ البنيان

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٥.
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ١٠٣.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ١٠٤.

وبعد أن دعا ربه أن يبارك فيه، ويثرى الحياة من حوله، عاد به إلى أمه وهو يطربه ويثنى عليه، ويقول: إنه سوف يكون له شأن [1]، وبعد حوار دار بينه وبين آمنة حول حمله ووضعه سماه محمداً، ولم يكن هذا الاسم معروفاً لدى العرب من قبل، وقال وهو يذكر السبب الذى من أجله سماه محمداً: إنى لأرجو أن يحمد فى الأرض وفى السماء [2].

وهكذا سطع نور محمد صلوات الله وسلامه عليه فى مكة، وانبثق فجر وجوده بين جوانبها ونواحيها، ولو أن الله تعالى أعلم البلد الحرام والبيت الحرام من هو محمد عليه الصلاة والسلام، وما هى رسالته، لهزا عطفيهما ابتهاجاً بمقدمه، ولتبسم ثغرهما سروراً لاستقباله والترحيب به، فقد أكرم الله مكة من أجله، وحمى الكعبة لتكون قبلة لأنصار دينه، ولم يجز القتال فيها لأحد من قبله ولا من بعده، وإنما أحلها له وحده ساعة من نهار، ثم حرمها إلى يوم القيامة، لا يسفك فيها دم إنسان ولا حيوان.

وبعد هذا الحدث الجليل، وهو مولد محمد صلوات الله عليه، راحت الأحداث تترى على البلد الحرام والبيت الحرام.

وأول ما نواجه منها، انهدام الكعبة، وإعادة بنائها وكان ذلك فى السنة الخامسة والثلاثون من عام الفيل [3]، وبعبارة أخرى كان ذلك

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٢ / ٢٤٣. (٢) سيرة ابن كثير ١ / ١٠٥
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ١٣٦

قبل خمسة أعوام من هبوط الوحي على نبينا عليه الصلاة والسلام.

ويحكي لنا وقائع هذه القضية ابن إسحاق، وابن هشام، وغيرهما من أمثال الطبري، والواقدي، وابن سعد.

وخلاصة ما قالوه: هو أن امرأة أتت الكعبة وفي يدها مجمر، وراحت تجمرها، ركنا إثر ركن، فخرجت من مجمرها شرارة فأحرقت البيت وقوضت أركانه [1]، وجاء السيل فنقض هذه الأركان وهدمها، فعزمت قريش على بنائها من جديد [2]، غير أنها هابت ذلك، وأشفقت منه، وخشيت إن هي وجهت معاولها إلى البيت أن يسخط الرب سبحانه، ويذيقها من بطشه وغضبه ما أذاق الملوك الذين غزوا مكة [3].

وأجمعوا أمرهم على جعلها قاعاً صفصافاً، وبينما هم يتشاورن جاءهم من يخبرهم أن سفينة لتاجر رومي اسمه باقوم جنحت إلى ساحل جدة بعد ما أوشكت أن تهوى إلى قاع البحر، فتفاءلوا وقالوا: نشترى هذه السفينة ونجعل من أخشابها سقفا للكعبة [4].

وهمَّ أبو وهب بن عمرو، فتناول من أحجارها حجراً فانفلت من بين يديه، ومضى إلى مكانه، فخاف الناس واشتد قلقهم، وترددوا فيما هم مقبلون عليه [5].

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٧٦.
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ١٤٥.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٠١.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ١٤٥.
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ١٣٨.

وكان إلى جوار البيت بئر توضع فيه الهدايا التى تُهدى للكعبة، وكانت تخرج منه كل يوم حية، وكان إذا دنا من البئر إنسان كشت وابزألت وفتحت فاها واستعدت للوثوب، وكانت قريش تخافها خوفاً شديداً، فجاء عقاب حتى إذا كان فوقها هبط واختطفها وانطلق، فقالت قريش: هذا فأل حسن [١]، إن ربنا قد رضى عما عقدنا عليه الخناصر، أليس قد هيأ لنا السفينة، وأزال الحية، وقام أبو وهب وقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا فى مالكم الذى أعددتم لبناء البيت الحرام مهر بغى، ولا بيع ولا ربا، ولا مظلمة أحد من الناس [٢].

ومع البشائر التى رأوها، وانشرحت صدورهم من أجلها، فإنهم ظلوا على خوفهم من هدم البيت وبنائه من جديد، حتى قام الوليد ابن المغيرة، وراح ينقض أحجاره وهو يقول، اللهم لم ترع، اللهم لا نريد إلا الخير [٣].

وانتظر القوم لا تمتد معاولهم إلى البيت، حتى مضت الليلة الأولى ينتظرون ماذا عسى أن يحدث للرجل، فلما تنفس الصبح ورأوه مقبلا إلى الكعبة، تسابقوا إلى هدمها وبنائها، حتى تم لهم ما أرادوا [٤]، ولأن الأموال التى كانوا قد جمعوها قد نفدت، فإنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا الحجر فى البيت، فتركوه خارجه [٥].

---

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٠٢.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٩.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ١٤٥.
(٤) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٠٢.
(٥) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٠٣.

محمد صلوات الله عليه ووضع الحجر في مكانه :

وجاء وضع الحجر الأسود في مكانه، فاختلفت قريش فيمن يكون له شرف وضعه وأوشكت الحرب أن تدور رحاها بين البطون بعضها وبعض[1]، ومضت أيام وهم على هذه الحال حتى قال أبو أمية بن المغيرة، وكان يومئذ أسن القوم، اجعلوا أول من يدخل عليكم من باب المسجد حكماً بينكم، وإذا محمد صلوات الله عليه يدخل عليهم، وإذا هم جميعاً يقولون :الأمين، رضينا به حكماً[2].

وإذا محمد عليه الصلاة والسلام يقول :هلم لى بثوب فلما جاءوا به تناول الحجر الأسود بيديه، حتى وضعه في وسطه، ودعا من كل ربع من أرباع قريش رجلاً، وأمر أن يأخذ كل واحد منهم بطرف من أطراف الثوب وأن يرفعوه جميعاً مكانه[3].

وهكذا أطفأ صلوات الله عليه نار الحرب، وجمع قريش كلها على رأى واحد، في الوقت الذى نال وحده الشرف كله، فبيديه وحدهما وضع الركن في وسط الثوب، وبيديه وحدهما كذلك وضع الركن في مكانه من البيت[4]. وجاء في إحدى الروايات أن إبليس عليه لعنة الله، أخذ حجراً وناوله النبي صلوات الله عليه ليشد به الركن، فمنعه العباس بن عبد المطلب، وقال له الرسول ﷺ : لا يشاركنا في بناء هذا البيت من ليس منا[5].

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٧٥.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ١٣٩.
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٢.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ١٤٦.
(٥) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٠٣، ١٠٤.

وهكذا نجحت قريش فى هدمها للكعبة، وبنائها لها من جديد، على منوال جرهم وخزاعة، فإن كلاً من هاتين القبيلتين قد نالت هذا الشرف، غير أن قريشاً لم تعد الكعبة كما كانت عليه فى حياة إبراهيم وإسماعيل، ومن حكم مكة بعدهما من القبائل.

وقد بينا آنفاً أن السر فى هذا هو :أن الأموال الطيبة التى قد جمعتها قريش قد نفدت، ولم يبق منها شيء [1]، وقد أخبر النبى صلوات الله عليه أم المؤمنين عائشة :أن قومها لم يعيدوا البيت إلى مثل ما كان عليه، وقال فى ذلك :«لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة وبنيتها على مثل ما كانت عليه فى حياة إبراهيم، ولجعلت لها بابين أحدهما شرقى، والآخر غربى، ولألصقت هذين البابين بالأرض [2].

وبين صلوات الله عليه لعائشة السبب الذى من أجله جعلت قريش للكعبة باباً واحداً، ورفعته عن الأرض وهو التحكم فى دخول الكعبة، فمن كانت لهم رغبة فى دخولها من غيرهم أدخلوه، وإلا فإنهم يتركونه حتى إذا كان قريباً من عتبة بابها طرحوه حتى يسقط، وكثيراً ما كان يكسر أو يعطب [3].

***

(١) الأزرقى : أخبار مكة ١/ ١٠٣.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ١٤٠.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ١٤٧.

انبثاق الإسلام فى مكة :

وراحت الحياة تجرى فى مكة هادئة راضية، لم يقع بين جوانبها بعد بناء البيت ما يلفت النظر أو يسترعى الخاطر حتى مضت خمس سنين، وهى المدة التى مرت بين بناء الكعبة وبعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه [١].

وهنا وقع الحدث الذى كانت تنتظره الدنيا، والذى حفظ الله البيت الحرام من أجله، وأهلك كل ملك حاول النيل منه والغض من شأنه. فقد هبط الروح الأمين على محمد صلوات الله عليه وهو فى غار حراء، يفكر فى ملكوت السموات والأرض[٢]، وما خلق الله من شىء، وأنبأه أن ربه قد اصطفاه، واختاره للرسالة، ووضع على عاتقه دعوة الإنس والجن كليهما إلى توحيده، والعمل بما سينزله عليه من القرآن الذى جعله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

واقرأ الآيات من هذا الذكر الحكيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهى قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [٣].

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٣٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٢١.

(٣) سورة العلق. الآيات: ١ ـ ٥.

وما أظنك تخالفنى فى ضخامة هذا الحدث العظيم، ولا فى أن الآثار التى ترتبت عليه لم تكن مقصورة على زمن دون زمن، ولا على مكان دون مكان، فقد أنارت أضواؤها المشارق والمغارب، وأضاءت أقباسها القلوب والأفئدة، ورفعت عن المجتمع الإنسانى أغلاله وقيوده، فتعلم بعد جهل، وأمن بعد خوف، وتحرر بعد استرقاق وصار أفراده وجماعاته سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأبيض على أسود، ولا أحمر على أصفر، إلا بالعمل الصالح، والكفاح الخالص، والطاعة الدائمة لله عز وجل.

وما أشك فى أن العالم على اختلاف ألوانه وأديانه وطرائق سلوكه، وأنواع أفكاره ومعارفه حرى أن يسجل هذا الحدث، ويكبره ويجعله أحد أعياده المقدسة، وذلك اقتداء بما فعله خالق هذا الكون سبحانه فقد أطرى الشهر الذى نزل فيه القرآن، وأوجب على المسلمين كافة أن يصوموه [1]، ويخلصوا فيه العبادة له عز وجل، وأطرى الليلة التى نزل فيها هذا الكتاب الخالد، وسماها ليلة القدر [2]، وأعلن أنها خير من ألف شهر، وأن الروح والملائكة تتنزل فيها بإذن ربها من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٢١٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٢٩، ٥٣٠.

وفى مكة وحول البيت العتيق، راح محمد صلوات الله عليه يدعو إلى دينه، ويبلغ الرسالة التى ألقاها ربه على كاهله، وكانت دعوته إلى هذا الدين الحق سرِّية ثلاث سنين، ثم جهرية بعد ذلك [1].

***

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٣٧.

أحداث وقعت فى الحرم

قريش تتحدى محمداً وأصحابه:

وكانت مقاومة المشركين له عليه الصلاة والسلام ولأصحابه قاسية وشديدة، حتى أمر المستضعفين منهم أن يهاجروا إلى الحبشة [١]، فهاجروا إليها مرة بعد مرة، وبقى هو فى حماية عمه أبى طالب، وبقى بعض أصحابه فى حماية عشائرهم وقبائلهم .

وأمام صمود محمد صلوات الله عليه فى وجه قريش، ورفضه لما عرضوه عليه من المال والملك، وقوله لعمه تعبيراً عن هذا الصمود والإصرار اللذين لا حد لهما : [والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه] [٢] .

أمام هذا كله، لم تجد قريش بداً من مقاطعته وأقاربه، ومحاصرتهم فى شعب أبى طالب ثلاث سنين، حتى ضوت أجسامهم، وتغيرت ألوانهم، وأكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع، وقسوة السغب[٣] .

ولم ينكشف عنهم هذا العذاب، إلا بعد أن أتى أبو طالب قريشاً فى نواديهم، ولفت نظرهم إلى ما هو فيه وأقاربه من بنى هاشم

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ١٥١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٢٠٨، ٢٠٩ .

وبنى المطلب، وعرض عليهم خطة لم يجدوا إلى معارضتها سبيلاً، وهي أن ابن أخيه صلوات الله عليه أخبره أن الصحيفة التى كتبتها قريش بينها وبين بنى هاشم وبنى المطلب، والتى علقوها فى جوف الكعبة قد أكلتها الأرضة، ولم يبق منها غير باسمك اللهم، فإن كان الذى قال محمد صلوات الله عليه حقاً أنهيتم هذه المقاطعة لأن الله لا يريدها، ولا يحب الاستمرار فى تنفيذها، وإن كان ما قاله كذباً، دفعته إليكم لتقتلوه أو تفعلوا به ما تشاءون . فقال القوم: لقد أنصفتنا [1].

وقاموا إلى جوف الكعبة، وكم كانت دهشتهم عندما تبين لهم صدق محمد ﷺ، وأن الصحيفة القاطعة الظالمة لم يبق منها غير باسمك اللهم [2]، وهى الكلمة التى كانت قريش تبدأ بها العهود، والمواثيق .

وهكذا ارتفع الظلم، وانفرج الغم، وعادت العلاقات كما كانت بين قريش وبنى هاشم وبنى المطلب، وأعقب ذلك موت أبى طالب، الذى كان يحمى محمداً ويدفع عنه، وموت خديجة التى كانت تأسو جراح قلبه [3]، وتقصى الأشجان والأحزان عن فؤاده.

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٢٨١، ٢٠٩.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ١٦٧، البداية والنهاية ٣ / ٩٥ ـ ١٠١ ط بيروت.

(٣) سيرة ابن هاشم ٢ / ٤٥.

مات هذان الحبيبان فى شهر واحد[1]، فلا تسأل عن الألم الذى كان يكابده، ولا عن الهم الذى كان يعانيه، فَقَدْ فَقَدَ النصير والظهير بفقده لعمه، وفقد الطبيب والحبيب بفقده لزوجه، فقعد فى بيته، وأغلق عليه باب داره .

* * *

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٣١٢ .

الإسراء والمعراج :

ولم يكن الله سبحانه ليتركه هكذا مهيض الجناح، كسير النفس والحس، فأهبط إليه جبريل، وميكائيل، وكان صلوات الله عليه في ضيافة عمته أم هانئ [١]، فاصطحباه حتى أتيا الكعبة، فشقا صدره، وغسلا قلبه [٢]، وجاءاه بدابة أكبر من الحمار، وأصغر من البغل، تضع حافرها عند منتهى بصرها، فامتطاها فاندفعت تجرى حتى المسجد الأقصى في مدينة القدس حيث غادرها.

وكان الأنبياء قد احتشدوا للقائه، واجتمعوا لمشاهدته، فأمَّهم في الصلاة [٣]، ثم عاد إلى دابته فامتطاها مرة ثانية، فانطلقت تصعد في الآفاق،حتى بلغت السماء الدنيا، ومنها إلى السماء الثانية، وهكذا حتى بلغت سدرة المنتهى، فغادرها واستأنف الصعود ومعه جبريل، حتى سمع صريف الأقلام [٤] ورأى اللوح المحفوظ .

وتوقف جبريل عن مصاحبته، فسأله صلوات الله وسلامه عليه عن السر في ذلك، فقال: هنا مقامي، ولو أني تجاوزته لإحترقت من الأنوار.

وراح محمد صلوات الله عليه يصعد إلى منازل لم يشهدها ملك مقرب، ولا نبى معظم [٥]، حتى أنعكس بصره في بصيرته، ورأى من لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير [٦] .

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٢٩٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٣٠٨ .
(٣) سيرة ابن هشام٢ / ٣٢ .
(٤) طبقات ابن سعد١ / ٢١٣.
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ٣٠١.
(٦) سيرة ابن كثير ١ / ٢٩٧.

وهكذا رأى محمد ربه، وسمع كلامه، وزاد على موسى الذى قال: ﴿ربى أرنى أنظر إليك﴾ [١] فكان جوابه: ﴿لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ [٢].

وقد ضجت مكة كلها لسماع هذا الخبر، وماج بعضها فى بعض[٣]، وراح المشركون يضربون كفًا بكف، ويقولون: نضرب أكباد الإبل من الحجاز إلى الشام شهراً ذاهبين، وشهراً آيبين، ويزعم محمد صلوات الله عليه أنه قطع هذه المسافة كلها فى ليلة واحدة[٤]، وأقبلوا يزفون إلى دار أبى بكر، وقصُّوا عليه القصص، فقال: يا عجبا، تمارونه فى ذهابه إلى الشام، وعودته إلى مكة فى ليلة واحدة؟ والله إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى الصعود إلى السماء، والرجوع منها فى غدوه أو رواحه[٥].

وأمام هذا الإيمان الراسخ، واليقين الثابت، سمى رسول الله صلوات الله عليه أبا بكر: الصدِّيق[٦].

(١، ٢) سورة الأعراف. الآية: ١٤٣.
(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ١٨٨.
(٤) السيرة الحلبية ٢ / ٩١.
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ٢٩٨.
(٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ١٨٨، ١٨٩.

ولخطورة الإسراء والمعراج هاتين، والآثار التى ترتبت عليهما، سجل القرآن الكريم الرحلة الأولى فى قوله تعالى: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ (١).

وسجل الثانية فى قوله تعالى: ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ (٢).

وواضح من الآيات التى سجلت حدث الإسراء والمعراج أن الله عز وجل كرم محمداً عليه الصلاة والسلام وعظمه، وأراه من آياته المبثوثة فى السموات والأرض ما شرح صدره، وهدأ قلبه، وأطلعه على مكانته الرفيعة عنده، ومنزلته الكريمة لديه.

***

(١) سورة الإسراء. الآية: ١.

(٢) سورة النجم. الآيات: ١ ـ ١٨.

محمد يعرض نفسه على القبائل :

ولم يكد حدث الإسراء والمعراج يخف وقعه على الأنفس، حتى شهدت مكة محمداً صلوات الله عليه وهو يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج، يدعوها إلى نصرته والدخول فى دينه وإيوائه [١]، حتى يبلغ عن ربه ما أمره به، وأبو لهب بن عبد المطلب يصيح من خلفه: لا تسمعوا له، ولا تدخلوا فيما يدعوكم إليه، إنه يريد أن يبدل دينكم ويظهر فى الأرض الفساد [٢].

ولو أتيح لك أن ترى هذا النبى العظيم، وهو يقطع مكة طولاً وعرضاً تحت حرارة الشمس القاسية، ولهيبها الذى يحرق الجلود، ويشوى الوجوه، داعياً العرب إلى ما يسعدهم، ويرفع القيود والأغلال عنهم، وهم يصدون عنه فى قسوة، ويرفضون نصائحه فى عنف، ويقولون له: لو كان ما تدعونا إليه خيراً لشاركك فيه قومك، ولآزرك عليه أهلك، عد من حيث أتيت، فلا حاجة لنا فيما تدعونا إليه [٣].

لو أتيح لك أن ترى هذا الإعراض الشديد، وتسمع هذه الردود القبيحة لانفطر قلبك، وتدفق الدمع من مآقيك ولعرفت جيداً كم قاسى هذا النبى العظيم، وكم مشى إلى هدفه على الحسك الجارح والشوك الشديد.

***

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٢١٦، ٢١٧.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٢٣.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٢١٦.

نحو مغادرته عليه الصلاة والسلام مكة :

غير أن الله ـ سبحانه ـ لم يدعه هكذا يذهب وقته سدى، وتمضى جهوده عبثـاً، وإنما هدى إليه قلوب فريق من الأوس والخروج، استمعوا إليه، وأنصتوا لحديثه، ووعوا ما فى كلامه من الهدى والخير، فآمنوا به، وانقادوا له، وبايعوه فى موسم الحج، وعلى كثب من البيت الحرام، والبلد الحرام، على أن يمنعوه مما يمنعون منه أذرهم [1].

والتاريخ يحدثنا أن أول من لقيهم رسول الله ﷺ من أهل يثرب، سويد بن الصامت بن خالة جده عبدالمطلب وكان يدعى فى قومه الكامل، لجده وشعره، وشرفه ونسبه [2]، ويقول الرواة: إن النبى عليه الصلاة والسلام لما رآه دعاه إلى الإسلام فلم يبعد ولم يقرب، وقرأ عليه شيئـاً من مجلة لقمان [3] فقال صلوات الله عليه: هذا كلام حسن، وما عندى أحسن منه، وتلا عليه شيئـاً من القرآن، وعاد سويد دون أن ينطق بالشهادتين، غير أنه لم يلبث إلا يسيراً حتى قتل، ومن قومه من يدعون أنه قتل وهو مسلم [4].

وبعد سويد لقى ستة من الأوس جاءوا ليحالفوا قريشـاً على الخزرج، فدعاهم النبى صلوات الله عليه إلى دينـه، فمال إليه إياس بن معاذ، وطلب من قومه أن يدخلوا فيه، ولأنه كان صبيـاً

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٦١ - ٦٣. (٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٣٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٣. (٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٢٠٤.

فإن أبا الحيسر أنس بن رافع زجره في عنف، وأحثى التراب في وجهه، وعاد الوفد إلى يثرب، وقتل إياس على الإسلام كما يقول قومه [١]. وكان اللقاء الثالث عند العقبة، وكان الرهط ستة كما كان الرهط السابق عليه. ويقول الرواة: إن النبى عليه الصلاة والسلام لما رآهم سألهم: [من أى البلاد أنتم؟] قالوا: من يثرب. قال: [من موالى يهود؟] قالوا: نعم. فعرض عليهم الإسلام، وتلا آيات من القرآن، فقال القوم بعضهم لبعض: إن هذا والله لهو النبى الذى تتوعدكم به اليهود، فآمنوا به، وادخلوا فى دينه، ففعلوا، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك [٢]. وانصرفوا راجعين من حيث أتوا. وتم لقاءان آخران، تم أولهما عند العقبة، وكان القوم اثنى عشر رجلاً، ولما رآهم النبى صلوات الله وسلامه عليه، تلا عليهم قوله تعالى: [٣] ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ [٤].. الآيات.. وبعد هذه التلاوة المباركة بايعهم على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا فى معروف [٥]. وقال لهم معقباً على هذه

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٣٣٢، ٣٣٣.
(٢) سيرة ابن هشام٢ / ٥٤، ٥٥.
(٣) سيرة ابن كثير ١ / ٣٣٥.
(٤) سورة إبراهيم. الآية: ٣٥.
(٥) طبقات ابن سعد١ / ٢١٩، ٢٢٠.

البيعة: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله، إن شاء عذب، وإن شاء غفر [١].

وفي رواية لابن إسحاق: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر [٢].

وقد أطلق المسلمون على هذه البيعة بيعة النساء [٣]، لأنها نزلت فيهن.

وقد تسأل: ولكن النزول كان بعد الهجرة، وهذه البيعة كانت قبلها؟ والجواب. وما المانع وهما متفقتان في الشروط. فإن قلت: وكيف عرفها رسول الله ﷺ قبل نزولها؟ والجواب: كان ذلك على سبيل الإلهام [٤]، ومن الممكن أن تكون قد نزلت مرتين، وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بوضعها في سورة الممتحنة إثر النزول الثاني.

يبقى اللقاء الأخير، وقد كان عند العقبة أيضاً، وكان عدد القوم سبعين رجلاً وامرأتين [٥]، وقيل: بل ثلاث. وقد شهد هذا اللقاء العباس بن عبد المطلب [٦]، وفيه أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يختار القوم من أنفسهم على أنفسهم نقباء، يكونون كفلاء عليهم وعلى غيرهم، فاختاروا اثني عشر، ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج.

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٢٠٨.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٣٥.
(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٦.
(٤) سيرة ابن كثير ١ / ٣٣٥.
(٥) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢١ - ٢٢٣.
(٦) سيرة ابن هشام ٢ / ٦٢.

وبعد مناقشات بين أهل المدينة بعضهم وبعض، وبينهم وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه، تمت البيعة، على أن يحمى الأنصار الرسول عليه الصلاة والسلام مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم ونساءهم وأبناءهم، ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام قد قرر الانتقال إليهم، والعيش بين أظهرهم[١].

وعلى الرغم من الاتفاق بين الأنصار والنبى عليه الصلاة والسلام على أن يبقى هذا اللقاء وما دار فيه سراً، لا تطلع عليه قريش، فإن المشركين استطاعوا أن يعرفوه ويكشفوا النقاب عنه، وجدوا فى القبض على أهل المدينة الذين شهدوا هذا الاجتماع الخطير لكنهم لم يقدروا على ذلك، لأن القوم كانوا قد انصرفوا إلى بلادهم، اللهم إلا ما كان من سعد بن عبادة، فإنهم أدركوه وأشبعوه ضرباً، حتى أنقذه أحد أشرافهم من بين أيديهم، وخلى بينه وبين العودة إلى بلاده[٢].

وهكذا شهدت مكة الكفاح المرير، الذى عاناه محمد صلوات الله عليه، فى دعوة قبائل العرب إليه، فى مواسم الحج[٣]، والجهود التى بذلها من أجل نصرته، والدخول فى دينه، ورأيت كيف كانوا ينهرونه ويقصونه[٤]، حتى هدى الله قلوب أهل المدينة إليه، وكان حديثه إليهم ولقاؤه بهم فى مكة، وفى مواسم الحج أيضاً. وأيقنت قريش أن محمداً صلوات الله عليه إذا هاجر إلى المدينة فسوف

---

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٢.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٤٩.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٢١٦، ٢١٧.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٢١٦.

لا يدعهم حتى يستأصل شأفتهم وينهى أحدوثتهم، وينتقم من كل مَنْ أساء إليه منهم، فإن الأوس والخزرج كليهما أهل الحرب، توارثوها كابر عن كابر[1]. واجتمعوا فى دار الندوة ليتدراسوا هذا الأمر، ويضعوا خطة محكمة للحيلولة بين محمد صلوات الله عليه ومغادرة مكة وكثرت الآراء، وتعددت الأهواء.

فقال فريق: نقتله ونستريح من شره، وقال آخر: بل نخرجه وندعه لشأنه، فإن أظهره الله على العرب فملكه ملكنا، وعزه عزنا، وإن كانت الثانية كنا قد استرحنا منه[2].

وقال الفريق الثالث: نقيده ونحبسه، حتى يفيء إلينا أو يموت بين ظهورنا[3]. ولأن هذه الآراء الثلاثة قد رفضت، فإن فريقا من قريش طرح رأياً رابعاً، فقال: نختار من كل قبيلة شاباً جلداً، ونعطيه سيفاً صارماً، ونأمر هؤلاء الفتيان أن يقفوا حيال دار محمد، فإذا غادرها ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب حرب هذه القبائل كافة، فيزعنون للواقع، ويقبلون الدية، فتعطى لهم من غير تلكؤ ولا تمهل[4].

وتم الاتفاق على هذا الرأى، وقد نزل الوحى على النبى صلوات الله عليه، فأخبره بما تعاهد عليه المشركون[5]، وفى هذا

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٢١٧.
(٢) سيرة ابن كثير ١ / ٣٦١.
(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٩٠.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٧.
(٥) سيرة ابن كثير ١ / ٣٦١.

يقول القرآن الكريم: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (١).

ويأذن الله لرسوله في الهجرة ويأمره أن يعد العدة ويأخذ الأهبة (٢)، ويمثل صلوات الله عليه للأمر، ويختار علياً لينام في فراشه (٣)، ويختار أبا بكر ليكون أنيسه ورفيقه (٤)، ويغادر صلوات الله عليه منزله، وفي يده حفنة من التراب يلقيها على رءوس محاصريه (٥)، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ (٦).

ويخرج محمد صلوات الله عليه، وأبوبكر، من بيت الصدِّيق (٧) رضي الله عنه وكان الليل قد أسدل سدوله، فآوى كل طائر إلى وكره، وكل حيوان إلى جحره، وكل إنسان إلى مخدعه ومضى النبي ﷺ وأبوبكر، وهما يبكيان إلى غار ثور (٨)، وما كادت مكة تبعد قليلا عن عيونهما، حتى طفق محمد ﷺ يقول وفي نفسه حسرة، وفي فؤاده لوعه: [يا مكة لأنت أحب بلاد الله إلى الله، ولأنت أحب بلاد الله إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت] (٩).

---

(١) سورة الأنفال. الآية: ٣٠.
(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٧.
(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٢٣٥.
(٤) سيرة ابن هشام ٢ / ٩٣.
(٥) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٨.
(٦) سورة يس. الآية: ٩.
(٧) طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٨.
(٨) سيرة ابن هشام ٢ / ٩٣.
(٩) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٢٣٩.

كلام يهيج الأحزان، ويثير الأشجان، ويمزق القلوب أسى ولوعة، ويفرى الأكباد كآبة وحسرة، الأمر الذى استحق معه رحمة الله وإحسانه، فقد نزل عليه قوله عز وجل: ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾[1]، فلينكسوا رءوسهم، وليطأطئوا هاماتهم، وليعلموا أن الله تعالى قادر على آذانهم وعقولهم، ولكنه لن يفعل ذلك لعله يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً ولا يجعل له فى ملكه شبيهاً ولا نداً.

***

(١) سورة محمد. الآية: ١٣.

المسلمون فى المدينة يتعطشون إلى البيت الحرام:

ويستقر محمد عليه الصلاة والسلام والمهاجرون فى المدينة، ويمضى عليهم وعلى الأنصار ستة أعوام، لا يزورون البلد الحرام ولا البيت الحرام[1]، ولا يعرفون من أخبار المستضعفين فى مكة من الرجال والنساء والولدان غير القليل، الذى لا يبل الصدى، ولا يزيل الظمأ، ولا يشفى الغليل، وتتوق أنفس المهاجرين والأنصار إلى بلد الله الآمن، وتتعطش قلوب هؤلاء وأولئك إلى حرمه الوادع، ويتمنون من أعماق أفئدتهم أن تضع الحرب أوزارها، حتى تتاح لهم الفرصة لحج الكعبة، وأداء الشعائر والمناسك حولها، وكم كان سرورهم وهم يتلقون هذه البشارة، فقد أعلن النبى ﷺ فى أصحابه ذات صباح، أنه رأى فى منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، لا يخافون[2].

فهشت نفوسهم لهذه الرؤيا، وانشرحت صدورهم، وأيقنوا أن مكة سوف تفتح أبوابها أمامهم، وأنه سوف لا يمر غير وقت يسير حتى يروا الوطن الذى نشئوا فيه، ونموا وشبوا بين أكنافه، والذى لم يغادروه إلا رغما عنهم، وخوفا على ملتهم وعقيدتهم، وراحوا يستعرضون أيام صباهم وذكريات شبابهم، ويسألون الله تعالى أن يتيح الفرصة، ويهيئ الظروف التى تمكنهم من مشاهدة الكعبة والطواف حولها، وأداء الشعائر والمناسك التى كانوا يؤدونها قبل أن يهاجروا من مكة إلى المدينة.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ١٩٦.　　(٢) مغازى الواقدى ٢ / ٥٧٢.

نحو مكة :

وما هى إلا مدة يسيرة حتى راح النبى صلوات الله عليه يدعو المسلمين إلى التجهز للعمرة[1]، فغمرتهم السعادة، وغشيتهم المسرة ولبى نداءه صلوات الله عليه ألف وستمائة [2].

وفى اليوم الأول من ذى القعدة [3]دخل النبى عليه الصلاة والسلام بيته فاغتسل، ولبس ثوبين، واستخلف على المدينة عبدالله ابن أم مكتوم، ثم ركب القصواء، وركب أصحابه حوله، وساقوا البدن، ومضوا حتى صلوا الظهر فى ذى الحليفة، ودعا صلوات الله عليه بالبدن فجللت وأشعرت، وفعل أصحابه فى بدنهم مثل ذلك، وأحرموا ولبوا [4]، ودعا صلوات الله عليه عباد بن بشر فى عشرين فارسا فقدمه طليعة له [5]، وانطلق الموكب يرفع اسم الله ويمجده فى صوت يهز الصحراء، ويملأ ما بين الأرض والسماء.

وبلغ المشركين الخبر فهاجوا وماجوا، واتفقوا فيما بينهم على أن يحولوا بين النبىﷺ وبين دخول البيت الحرام [6]، وخرجوا من مكة حتى عسكروا فى بلدح، وبعثوا خالد بن الوليد، أو عكرمة ابن أبى جهل طليعة لهم فى مائتى فارس [7]، ودخل بسر بن سفيان الخزاعى مكة، وسمع ما جرى بين قادتها وزعمائها [8] ورجع حتى

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ١١٢. (٢) مغازى الواقدى ٢ / ٥٧٤.
(٣) سيرة ابن هشام ٣ / ١٩٦. (٤) ابن عبد البر: الدرر ص١٩٢.
(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ١١٤. (٦) سيرة ابن هشام ٣ / ١٩٧.
(٧) مغازى الواقدى ٢ / ٥٧٩. (٨) مغازى الواقدى ٢ / ٥٧٩، ٥٨٠.

لقى النبى ﷺ فى غدير أشطاط وراء عسفان، وأخبره بذلك[١].

ودنا خالد من النبى ﷺ وأصحابه، فأمر صلوات الله عليه عباد بن بشر بإزائه، وصف المسلمين، وصلى بهم صلاة الخوف[٢]. وسار حتى دنا من الحديبية وهى طرف الحرم، على تسعة أميال من مكة، فبركت راحلته، فزجرها المسلمون فلم تنبعث، فقال لهم صلوات الله عليه: [دعوها فقد حبسها حابس الفيل].

وقال: [أما والله لا يسألوننى اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها][٣]. وزجر ناقته فقامت، فولى راجعا عوده على بدئه حتى نزل بالناس ثمداً من أثماد الحديبية، ليس فيه من الماء غير القليل، فانتزع صلوات الله عليه سهما من كنانته، وأمر أن يغرز فيه فجاشت لهم حتى اغترفوا بآنيتهم وهم جلوس على شفير البئر[٤].

وجاء بديل بن ورقاء فى ركب من خزاعة، وقال للنبى ﷺ: جئناك من عند قومك كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العوذ والمطافيل، والنساء والصبيان يحلفون بالله لا يخلون بينك وبين البيت، حتى ينتصروا أو يموتوا. فقال صلوات الله عليه: ما جئنا لقتال أحد، وإنما جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه[٥].

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ١١٤.

(٢) مغازى الواقدى ٢ / ٥٨٢، عيون الأثر ٢ / ١١٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٢ / ١٣٦.

(٤) ابن عبد البر: الدرر. ص ١٩٢.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ١١٦.

فعاد بديل بن ورقاء إلى قريش، وقص عليها ما سمع، ودارت المفاوضات بين النبيﷺ، وبين قريش، وكان عثمان رضى الله عنه أحد هؤلاء المفاوضين، فحبسته قريش، وانطلقت الشائعات أنه قتل، فنادى مناديه صلوات الله عليه أن هلموا إلى البيعة، فأسرعوا إليه، فبايعهم جميعا تحت الشجرة، وكانت بيعته لهم على عدم الفرار إذا دارت رحى الحرب بينهم وبين أعدائهم(١).

وطار الخبر إلى قريش، فجدوا فى التفاوض حتى تم الاتفاق على الصلح بينهم، وبين النبى صلوات الله وسلامه عليه(٢)، وكانت هذه الاتفاقية تتضمن عددا من الشروط: منها: أن تكف الحرب بين النبى عليه الصلاة والسلام وقريش عشر سنين(٣)، وأن من شاء أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه، ومن شاء أن يدخل فى عهد قريش وعقدها دخل فيه.

فاختارت خزاعة جانب محمد، واختارت بكر جانب قريش(٤)أضف إلى هذا وذاك شرطا ثالثا وهو أن من أتى مكة من المسلمين لاجئا لا ترده إلى محمد، ومن أتى المدينة من المشركين لاجئا إليه يرده صلوات الله وسلامه عليه. وقد أحدث هذا الشرط جدلا من بعض الصحابة(٥)، فقد عارضه عمر، وكلم فيه أبا بكر، فلما لم يرقه جوابه، أتى رسول الله ﷺ وقال له: ألسنا على الحق؟

---

(١) سيرة ابن هشام٣ / ٢٠٢.
(٢) تاريخ اليعقوبى٢ / ٥٤.
(٣) ابن عبد البر: الدرر ص١٩٣.
(٤) سيرة ابن هشام٣ / ٢٠٣.
(٥) ابن عبد البر: الدرر ١٩٣.

قال : بلى . قال : أوليسوا على الباطل ؟ قال :بلى .قال : فلم نرضى الدنية فى ديننا ؟ فقال النبى عليه الصلاة والسلام : إنى رسول الله ، وإنه سبحانه سوف لا يضيعنى[1] .

وقد كان لهذا الجدل من عمر وغيره أثره فى المسلمين فقد دعاهم النبى عليه الصلاة والسلام أن يحلقوا رءوسهم ، فتلكأ الكثير منهم فدخل صلوات الله عليه إلى امرأته أم سلمة ، وكانت قد خرجت معه من المدينة ، فحكى لها ما وقع ، وأنبأها أنه يخشى على أصحابه أن تصيبهم مصيبة أو ينزل بساحتهم رزء ، لأنهم عصوا نبيهم ، ولم يسارعوا إلى طاعته وامتثال أمره ، فأشارت عليه وكانت حصيفة ، أن يخرج فينحر بدنة ، ويحلق رأسه ، فإنه إن فعل أسرع أصحابه فنسجوا على منواله وكان الأمر كما توقعت ، فإن المسلمين ما كادوا يشاهدون رسول الله ﷺ ينحر بدنة ويحلق رأسه ، حتى قلدوه على هديه[2] .

وقد سجل القرآن الكريم هذا الحدث الذى وقع على كثب من مكة فى سورة كاملة ، وهى سورة الفتح ، وجاء فيها فى شأن البيعة قوله تعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾[3] .

---

(١) مغازى الواقدى ٢ / ٦٠٦ .

(٢) سيرة ابن كثير ٢ / ٦٨ .

(٣) سورة الفتح . الآية : ١٨ .

وقد أطلق المسلمون على هذه البيعة، بيعة الرضوان [١]، وسموا الشجرة التى كانت تحتها، شجرة الرضوان أيضا.

وقال المؤرخون وكتاب السير: إن النبى عليه الصلاة والسلام وضع يده اليمنى فى يده اليسرى وقال: [هذه يد عثمان أبايع له بها نيابة عنه] [٢]. والسبب فى هذا هو ما أسلفنا من أنه كان فى مكة، وكانت قريش قد منعته من مغادرتها.

وفى شأن شجرة الرضوان تقول بعض الروايات: إن الناس كانوا يجلونها ويصلون عندها، وبلغ ذلك عمر رضى الله عنه، فأمر أحد المسلمين فقطعها. وتقول روايات أخرى: إن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام قد أنسوها، فلم يعودوا يعرفونها [٣]، وسواء أصحت الرواية الأولى أم أن الثانية هى الصحيحة، فقد أقيم فى مكان هذه الشجرة مسجد يصلى فيه الناس حتى اليوم.

***

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ١١٩.
(٢) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٠٢.
(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ٦٤.

عمرة القضاء :

ولأن عدم دخول النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه البلد الحرام والمسجد الحرام قد أحزن الناس، وأزال الآمال التى كانت معقودة على ذلك من رؤية وطنهم الحبيب، ومشاهدة من فيه من الأهل والأقارب، والتحدث إليهم، وتذكر الليالى والأيام التى قضوها بين ظهرانيهم، فإن بعضهم راح يسأل :ألم يرنا صلوات الله عليه فى منامه ندخل المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسنا ومقصرين، فلماذا لم ندخله وقد كنا على كثب منه، وكيف حيل بيننا وبينه، ورؤيا الأنبياء حق، بل إنها جزء من أربعين جزءاً من النبوة.

غير أن الراسخين فى العلم منهم ما لبثوا أن تجلى لهم وجه الحق فى هذه القضية، وهو أن النبى عليه الصلاة والسلام رآهم يدخلون المسجد الحرام[1]، غير أنه لم يحدد لهم الوقت الذى سوف يدخلونه فيه، وعلى هذا الأساس فالرؤيا قائمة، والبشرى لم تزل كما هى لم تذهب ولم تتغير.

والذى لا شك فيه هو أن دخولهم المسجد الحرام حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ولا إلى الارتياب فيها وقد نصت الاتفاقية التى تمت بين النبى عليه الصلاة والسلام وقريش، على أن يعود هذا العام إلى المدينة، ويأتى مكة فى العام الذى يليه، ويقيم فيها ثلاثة أيام[2]، ليس معه ولا أحد من أصحابه من السلاح غير السيوف فى القرب.

(١) مغازى الواقدى ٢ / ٥٧٢. (٢) ابن عبد البر :الدرر. ص١٩٣.

وما أشك فى أن المسلمين الذين كانوا معه عليه الصلاة والسلام فى هذه العمرة التى لم تتم، قد كانوا ينتظرون فى شوق مرور العام المضروب بينهم وبين قريش، حتى يعودوا إلى مكة، ويملأ عيونهم من معالمها ومشاهدها، ويتحدثوا إلى أهليهم وأقاربهم فيها.

وجاء شهر ذى القعدة وهم لا يرتابون فى أن منادى النبى ﷺ، لن يلبث إلا قليلاً حتى يؤذن فيهم أن يتجهزوا لزيارة البلد الحرام والبيت الحرام، وهذا هو ما كان، فقد أعلن صلوات الله عليه أنه متوجه إلى مكة لأداء العمرة، وعلى الذين رافقوه إلى الحديبية فى السنة السابقة أن يستعدوا للسير معه[1]، وكانوا ألفا وأربعمائة، أو ألفا وستمائة، على خلاف فى ذلك بين الروايات[2].

ويقول المؤرخون وكتاب السير: إن الجيش الآنف الذكر قد لبى كله الدعوة، إلا من كان قد مات حتف أنفه، أو استشهد فى خيبر، وانضم إليه آخرون من المهاجرين والأنصار، حتى بلغ الجيش ألفين[3].

وفى السادس من ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة استخلف النبى ﷺ أبارهم الغفارى على المدينة[4]، وخرج هو وأصحابه وهم يلبون من المسجد، وقدموا الهدى بين أيديهم، ولم يكن معهم من السلاح غير سيوفهم على عواتقهم، وما عداها من شكة الحرب،

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٣. (٢) مغازى الواقدى ٢ / ٥٧٤.
(٣) مغازى الواقدى ٢ / ٧٣١. (٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ١٥٨.

فقد أمر عليه الصلاة والسلام بها فحملت حتى وضعت في وادي يأجج[1].

وقد وكل صلوات الله عليه أمر حراستها إلى مائة من أصحابه، وعهد إلى محمد بن مسلمة رضي الله عنه بإمارة الخيل، وجعله طليعة له، وكانت خيله مائة كذلك[2]، ولما بلغ مرَّ الظهران، رأى نفرا من قريش فسألوه :ما خطبك؟ولماذا جاء في خيل يقودها إلى هذا المكان؟وأجاب ابن مسلمة: أنه طليعة محمد ﷺ وإنه عما قليل سيصبح في هذا الوادي، فخاف هذا النفر وارتبك، وأسرع فأخبر قريشا كلها بما سمع، فطاش صوابها، واضطربت أحوالها[3]، وغادرت مكة وصعدت إلى قمم الجبال[4].

ودخل النبي ﷺ مكة من الثنية المؤدية إلى الحجون، وتابعه أصحابه، فطافوا حول الكعبة، وسعوا بين الصفا والمروة[5]، وفي الدور السابع لهذا السعي، قال النبي ﷺ: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر، ونحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون[6].

ويقول الرواة: إن المشركين كانوا يزعمون أن حمى المدينة قد أضعفت أصحاب محمد، فأمرهم صلوات الله عليه أن يرملوا في

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ١١٩.
(٢) مغازي الواقدي ٢ / ٧٣٣.
(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ١٢١.
(٤) مغازي الواقدي ٢ / ٧٣٤.
(٥) سيرة ابن هشام ٤ / ٤.
(٦) مغازي الواقدي ٢ / ٧٣٦.

الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، ويمشوا فيما عداها، وذلك حتى يكبت المشركين ويذهب ما يظنونه فيهم [(١)]. وقد تحقق هذا، وقال المشركون لما رأوا المسلمين يرملون: والله ما فيهم من ضعف، وإن ما شاع عنهم من ذلك لا حقيقة له. وكان عبدالله بن رواحة يقول وهو يطوف [(٢)]:

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله
يا رب إني مؤمن بقيله

وقد حاول عمر رضي الله عنه أن يصرف ابن رواحة عن إنشاد هذه الأرجوزة، فنهاه النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: إني أسمع [(٣)]، ثم قال لابن رواحة: قل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فراح ينشدها، والمسلمون يرددونها خلفه، فكان مشهدا يغيظ الكفار، ويفل من قواهم وعزائمهم، وزادهم ألما إلى ألم صوت بلال وهو يؤدي الأذان على

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ١١٨.
(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ٥.
(٣) مغازي الواقدي ٢ / ٧٣٦.

سطح الكعبة، وراح بعضهم يقول لبعض: الحمد لله الذى أمات آباءنا قبل أن يسمعوا هذا الصوت [1].

وحتى لا يحرم المائة الذين وكل النبى عليه الصلاة والسلام إليهم حراسة السلاح فى يأجج فإنه صلوات الله عليه قدد أمرهم أن يوافوا مكة لأداء شعائر العمرة، وأحل مثلهم محلهم فى حراسة السلاح، ولما انقضت الأيام الثلاثة التى سمح المشركون فيها للمسلمين فى الإقامة حول الكعبة، جاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى وقالا له [2]: قد انقضى أجلك فاخرج عنا، وكان صلوات الله عليه قد خطب ميمونة بنت الحارث، فقال لسهيل وحويطب: ما ضركم لو أعرست بينكم وأولمت لكم. فأبى الرجلان أن يؤجلاه ولا يوماً واحداً [3]، ولم يجد النبى عليه الصلاة والسلام بداً من مغادرة مكة هو وأصحابه إلى المدينة، والعلماء يسمون هذه الغزوة عمرة القضاء [4]، أو عمرة القضية [5].

(١) مغازى الواقد ٢ / ٧٣٧، ٧٣٨.
(٢) عيون الأثر ٢ / ١٥٨.
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٢ / ١٥٤.
(٥) مغازى الواقدى ٢ / ٧٣١.

فتح مكة :

ووضعت الحرب أوزارها بين النبى عليه الصلاة والسلام وقريش، وطبق كل منهما الصلح الذى تم فى الحديبية، والذى جعل الهدنة بينهما عشر سنين[1]، أو سنتين اثنتين، فى إحدى الروايات.

وانصرف النبى صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام ينشره فى بلاد العرب، وخارج بلادهم، فكتب الكتب إلى الملوك والأمراء يحثهم على الإيمان به، والدخول فى دينه[2]، وبعث الأساتذة والمعلمين إلى القبائل الضاربة فى شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، لتعليمهم مبادئ الإسلام وأحكامه، وشرح ما قد يكون غامضًا عليهم منها، حتى اعتدت بكر على خزاعة، وقتلت رجالها ونساءها، وما طفقت تضربهم بالسيوف، وتطعنهم بالرماح، حتى ألجأتهم إلى الحرم، مستجيرين به ومعتصمين بحرمته، ولأن قريشا أمدت بكراً بالسلاح وساعدها رجال منها فشارك فى الحرب والضرب[3].

وقد أسلفنا أن بكراً قد اختارت فى صلح الحديبية جانب قريش، واختارت خزاعة جانب محمد صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) ابن عبد البر: الدرر . ص١٩٣ .

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢ /١٤٣-١٤٦ .

(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ١٦٧ .

وأصحابه [1] ،فإن مساعدة قريش لبكر تعتبر نقضا لاتفاقية الحديبية، وخرقاً لشروطها، وهذا هو السر فى أنها ندمت على ما فعلت، وأوجست خيفة من تدخل النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه لصالح القبيلة التى دخلت فى عهده وعقده، وأرسلوا أبا سفيان يشد العقد، ويمد أجل الاتفاقية [2]. وكان عمرو بن سالم الخزاعى قد سبق أبا سفيان وأتى محمدا عليه الصلاة والسلام فى المدينة فى ركب من قومه، وأنشد فى حضرته هذه القصيدة الحزينة [3]:

يارب إنى ناشد محمدا
حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرا أيدا
وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خسفا وجهه تربدا

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٠٣.
(٢) ابن الأثير الكامل ٢ / ١٦٢.
(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٦.

في فيلق كالبحر يجرى مزبدا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لى فى كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعوا أحدا

فهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعا وسجدا

وأثرت هذه القصيدة فى قلبه عليه الصلاة والسلام، حتى كادت تبكيه، وتجعل مدامعه تتدفق على خديه، وقال لعمرو: نصرت ياعمرو بن سالم ورأى سحابة مقبلة من بعيد فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب[1]. وعاد عمرو بن سالم ومن حضر معه من قومه إلى بلادهم وهم لا يشكون فى أن النبى عليه الصلاة والسلام سينتقم من قريش، ويأخذ بثأر خزاعة منهم.

وفى الطريق لقى عمرو أبا سفيان فسأله: أكنت عند محمد؟ فالتوى عليه فى الجواب، فأتى مبرك راحلته، وتأمل فى روثها فإذا فيه النوى، فلم يشك فى أنه كان فى يثرب[2].

ومضى أبو سفيان إلى المدينة، وقابل الرسول ﷺ فسأله:

(١) ابن عبد البر: الدرر. ص٢١٢.

(٢) عيون الأثر ٢/١٨٣.

لماذا أتيت ؟ قال : لأشد العقد ، وأزيد فى المدة ، فقال صلوات الله عليه : وهل حدث ما يدعو إلى ذلك ؟ فقال : لا وتركه دون أن يلتفت إليه .

وتحير الرجل ولم يدر ما يصنع[١] ، وذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وكانت إحدى أمهات المؤمنين ، فلما دخل عليها طوت الفراش عنه ، فقال لها : والله لقد أصابك بعدى شر ، والله ما أدرى أطويت هذا الفراش ضنا به عنى أم ضنا بى عنه . فقالت : إنه فراش رسول الله وإنك مشرك نجس[٢] ، فغادرها إلى أبى بكر ، وطلب منه أن يجيره ، فأبى وقال : والله لو لم أجد غير الذر لقاتلتكم به ، وكذلك فعل عمر وعلى وفاطمة ، فإنهم جميعا رفضوا أن يجيبوا أبا سفيان إلى ما أراد[٣] . الأمر الذى اضطره إلى أن يطلب النصح من عَلىٍّ كرم الله وجهه ، فنصحه أن يأتى المسجد ويجير فى الناس ، ثم ينصرف إلى حال سبيله وفعل الرجل ما أشار به عليه عَلىٌّ ، وعاد إلى قومه ، ولما قص عليهم القصص قالوا له : وماذا قال محمد صلوات الله عليه ؟ قال : لم يقل شيئا[٤] .

وما أشك فى أن القوم قد أدركوا أن وقوفهم إلى جانب بكر ، وقتالهم معها ، وإمدادهم إياهم بالكراع والسلاح ، سوف لا يمر دون عقاب رادع ، ومؤاخذة شديدة ، من النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، وهذا هو ما كان ، فقد دعا صلوات الله عليه

(١) مغازى الواقدى ٢ / ٧٩٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) مغازى الواقدى ٢ / ٧٩٣ .
(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٨ .

أصحابه إلى التجهز ، وأخفى ما عزم عليه إلا عن القليلين من أصحابه ، وقال وهو يستعد للخروج : اللهم خذ العيون والأبصار عن قريش ، حتى نباغتها فى بلادها[١] .

وكان حاطب بن أبى بلتعة ممن عرفوا وجهة النبى صلوات الله عليه ، فكتب إلى أهل مكة كتابا ، أخبرهم فيه أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد خرج فى جيش كثيف ، غير أنه لا يدرى إن كان قد قصد إليهم أم إلى غيرهم ، وألح إليهم أن يستعدوا على أية حال[٢] .

وأعلم الله نبيه ما كان ، فاستدعى عليا والزبير ، وأمرهما أن يأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فليأخذاه منها ، وليعودوا بعد ذلك إلى المدينة ، وعثر الرجلان على المرأة ، وطلبا منها الكتاب فنفت أن يكون معها شيء ، فهددها إذا هى لم تخرجه فسوف يجردانها من أثوابها حتى يحصلا على بغيتهما[٣] .

ولما رأت المرأة الجد فى عيونهما ، طلبت منهما أن ينتحيا ، وحلت قرونها وأخرجت الكتاب منها[٤] .

واستدعى النبى عليه الصلاة والسلام حاطباً وسأله عما دفعه إلى إرسال هذا الكتاب ، فقال : يا رسول الله ، والله ما شككت فى صدق رسالتك ، ولا قصدت إلى خيانتك ولكنى رجل حليف

---

(١) عيون الأثر ٢ / ١٨٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ٢ / ١٦٣ .
(٣) مغازى الواقدى ٢ / ٧٩٨ .
(٤) عيون الأثر ٢ / ١٨٥ .

لأهل مكة، وليس لي فيهم من يدفع عن أهلي فيها، فأحببت أن تكون لي عندهم يداً يكافئونني عليها [1]. فقام عمر وقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق حاطب فإنه قد نافق، فأبى صلوات الله عليه وقال: [إنه قد شهد بدراً وإنك لا تدري، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم [2].

وقد سجل القرآن الكريم حكاية حاطب هذه في قوله: ﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ [3].

وواضح من هذه الآية أنها تُخطِّئ حاطباً فيما فعل، وتحذره وغيره من الوقوع في مثله، وتنهى المؤمنين ومنهم ابن أبي بلتعة هذا عن موالاة أعداء الله وأعدائهم غير أنها في الوقت نفسه لا تقصي حاطباً عن حظيرة المؤمنين، لأنه هفا هفوة واحدة، وتذكر له أعماله السابقة في سبيل رفع كلمة الإسلام وإعلاء رايته.

وهذا هو الذي عناه النبي صلوات الله عليه في قوله لعمر رضي الله عنه: إنه قد شهد بدراً، وأن الله تعالى قد غفر لمن شهدها آثامه وذنوبه [4].

---

(1) ابن عبد البر: الدرر ص ٢١٤.
(2) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٠.
(3) سورة الممتحنة. الآية: ١.
(4) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٠.

ومهما يكن من شيء فإن النبى عليه الصلاة والسلام لما استكمل قوته، وأعد عدته، استخلف على المدينة أبارهم، كلثوم بن حصين[1]، وخرج فى عشرة آلاف [2]، وأوعب معه المهاجرون والأنصار، ولما بلغ عسفان شكا بعض الناس من أن الصيام يشق عليهم، فأفطر صلوات الله عليه وأمر أصحابه أن يفطروا، فأصبح بعضهم كذلك، وأصبح البعض الآخر صائماً. ولما دنا صلوات الله عليه من أول منزل يمكن أن يلقى العدو فيه، أعاد الأمر إلى أصحابه بالفطر، فلم يتخلف أحد عنه [3].

ومن الرواة من يقول: إن النبى عليه الصلاة والسلام لما بلغ الكديد وهو مكان بين عسفان وأمج - أفطر وأمر أصحابه أن يفطروا، ولما بلغه أن بعض الجند قد أصر على الصيام قال صلوات الله عليه: [أولئك العصاة] [4] وكررها مرتين. وقد اختلفت الروايات فى الوقت الذى فصل فيه الرسول وجنوده من المدينة، أهو آخر شعبان، أم اليوم الثانى أم اليوم العاشر من رمضان[5] واختلفت كذلك فى وصوله عليه الصلاة والسلام ورجاله إلى مكة. أكان فى اليوم العاشر من رمضان، أم الثالث عشر منه [6]، أم أنه لا هذا ولا ذاك، وإنما كان قبل انقضائه بعشرة أيام [7].

وثم خلاف آخر حول عدد الجيش، فمن الروايات ما تجعل عدده

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ص ٢١٤.
(٢) عيون الأثر ٢ / ١٨٥.
(٣) مغازى الواقدى ٢ / ٨٠١، ٨٠٢.
(٤) مغازى الواقدى ٢ / ٨٠٢.
(٥) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٠.
(٦، ٧) سيرة ابن كثير ٢ / ١٧٥.

عشرة آلاف [١]. ومنها ما تجعله اثنى عشر ألفًا [٢]. والمشهور القول الأول.

وأيًا ما كان فإن النبى عليه الصلاة والسلام لقى العباس بن عبد المطلب فى الجحفة، وكان قد حمل أولاده وخرج مهاجرًا إلى المدينة[٣]، فهش له صلوات الله عليه وسره دخوله فى دينه [٤].

ومن المؤرخين من يقول: إنه أسلم قبل ذلك، وكان يكتم إسلامه، وبقى فى مكة حتى يبلغ أخبارها إلى رسول الله ﷺ.

والذى يستعرض مواقفه الكثيرة من النبى ﷺ، ومواقف النبى منه، لا يخامره شك فى ترجيح هذه الرواية على سابقتها، وعلى سبيل المثال: ما كان منه فى بيعة العقبة الثانية[٥]، فقد أعلن فى الأنصار أن النبى ﷺ فى منعة من أهله، وإنهم قادرون على حمايته والدفاع عنه، لكنه آثر المدينة، وفضل الحياة بين أهلها على الحياة فى مكة.

ولما أسر فى بدر، وسمع النبى ﷺ أنينه فى قيوده، أمر فحلت هذه القيود، وقبل ذلك وأثناء المعركة قال لأصحابه من رأى منكم العباس فلا يقتله. فقال أبو حذيفة عند ذلك: ينهانا عن قتل عمه ويأمرنا بقتل آبائنا، والله لو رأيت العباس لضربته بسيفى، وندم الرجل على هذه المقالة، وظل كلما ذكرها يستغفر الله منها، حتى استشهد فى وقعة اليمامة [٦].

---

(١) عيون الأثر ٢ / ١٨٥.
(٢) سيرة ابن كثير ٢ / ١٧٤.
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٠.
(٤) سيرة ابن كثير ٢ / ١٧٦.
(٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٦٢.
(٦) ابن الأثير: الكامل ٢ / ٨٩، ٩٠.

وما أظن أن يقول العباس فى النبى ﷺ ، ما قاله فى بيعة العقبة الثانية ، ولا أن يقول النبى فيه ما قاله والقتال دائر فى بدر ، ولا ما قاله العباس فى الأسر ، إلا إذا كان الرجل قد انقاد للإسلام ودخل فيه ، وقد يكون هذا هو السر فى ندم أبى حذيفة إثر مقالته فى العباس وحلفه ليضربنه بسيفه إذا لقيه فى ساحة المعركة (١) .

وعلى أية حال فإن العباس لم يمض فى طريقه إلى المدينة بعد أن لقى النبى ﷺ ، وإنما رافقه وانخرط فى جيشه الزاحف إلى مكة (٢) .

وثم رجلان آخران لقيهما رسول الله ﷺ فى الطريق ، ودخل كل منهما فى الحنيفية السمحة ، وهما (٣) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية بن المغيرة .

ويقول الرواة : إن النبى ﷺ ، رفض استقبال هذين الرجلين ، وإن أم سلمة رضى الله عنها قالت : يارسول الله إنهما ابن عمك ، وابن عمتك وصهرك . قال : [لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ماقال] .

ولما بلغ هذا الخبر أبا سفيان بن الحارث وكان معه ولد له قال : والله لأذهبن أنا وولدى فى الأرض حتى نموت جوعاً وعطشاً (٤) . وبلغ ذلك النبى ﷺ فرق لهما ، ودخلا عليه فأسلما .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٢ / ٩٠ .
(٢) ابن عبد البر : الدرر . ص : ٢١٥ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ٢ / ١٦٤ .
(٤) سيرة ابن كثير ٢ / ١٧٦ .

وأنشد أبو سفيان بين يديه قوله [1]:

لعمرك إني يوم أحمل راية
لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله
فهذا أواني حين أهدى وأهتدى
هدا بى هاد غير نفسى ونالنى
مع الله من طردت كل مطرد
أصد وأنأى جاهدا عن محمد
وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ما هم من لم يقل بهواهم
وإن كان ذا رأى يلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط
مع القوم ما لم أهد فى كل مقعد
فقل لثقيف لا أريد قتالها
وقل لثقيف تلك غيرى أوعدى
فما كنت فى الجيش الذى نال عامر
وما كان عن جرى لسانى أو يدى

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٣١.

نـزائـع جـاءت مـن سـهـام وسـردد

وعلى الرغم من أن النبى ﷺ ، دخل مر الظهران ، فإن قريشاً لم يصلها من أخباره شيء [١] ، وكيف تصلها أخباره صلوات الله عليه ، وهو قد سأل ربه عند خروجه من المدينة أن يأخذ العيون والأبصار عن قريش ، حتى يباغتها فى بلادها .وقد يكون هذا هو السر فى أن العباس بن عبد المطلب ، خشى على قريش أن يدخل عليهم النبى ﷺ مكة ، فيهلك الكثيرون منهم ، وراح يبحث عن حاطب أو بائع لبن أو متوجه إلى مكة فى حاجة ، لينهى إلى قريش خبر النبى ﷺ ، وأنه جاءهم بما لا قبل لهم به ، وأن عليهم أن يستأمنوا لأنفسهم ، حتى لا يكونوا نهباً للأسنة ، وطعاماً للسيوف [٢] .

وبينما هو فى هذا التفكير ، طرق آذانه صوت رجلين يتناجيان ، يقول أحدهما لصاحبه : ما هذه النار التى لم أر مثلها قبل اليوم؟ ويجيبه الآخر : إنها خزاعة قد حمشتها الحرب ، فيقول له : إن خزاعة أقل وأذل من أن يكون لها مثل هذه النار [٣] .

ويدرك العباس أن أحد هذين الرجلين هو أبو سفيان ، فيناديه :يا أبا حنظلة ، فيقول أبو سفيان :لبيك أبا الفضل ، ما خبرك ؟ فيقول العباس :لقد صحبكم محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه [٤] ،

(١) عيون الأثر ٢ / ١٨٥ .
(٢) عيون الأثر ٢ / ١٨٦ .
(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ١٧٨ .
(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٢ .

ويأمر فيمتطى خلفه بغلة النبىﷺ ، ويمضى وكلما مر بنار قال أصحابها : عم رسول الله على بغلته ، حتى أتى نار عمر فقام مرحبا ، فلمح أبا سفيان ، فقال له :يا عدو الله ، الحمد الله الذى أمكننى منك من غير عهد ولا عقد وأسرع حتى دخل خيمة النبىﷺ ، وزف إليه الخبر ، وطلب منه أن يدعه يضرب عنق أبى سفيان [١].

وكان العباس بن عبد المطلب قد دخل الخيمة وسمع عمر وهو يقول ما يقول ، فقال له :والله ما ألححت فى قتل هذا الرجل إلا لأنه أحد رجال عبد مناف ، ولو كان من بنى عشيرتك ما قلت فيه ما قلت .وأغضبت هذه الكلمة عمر ، وقال :والله إن فرحى بإسلامك لأكثر من فرحى بإسلام الخطاب لو أنه دخل فى هذا الدين الحق[٢]. ثم إن النبىﷺ ، قال لأبى سفيان : قل أشهد أن لا إله إلا الله فقال : واللات والعزى ما أصنع فيهما ؟ فقال عمر : أخرأ عليهما : فتبسم صلوات الله عليه وقال لأبى سفيان بعدما ردد الشهادة :قل أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال :بأبى أنت وأمى ، أما هذه ففى النفس منها شىء [٣]، فقال له العباس : قلها قبل أن تضرب عنقك .

ولما تم إسلامه أمر النبى ﷺ العباس أن يذهب به إلى مضيق الوادى عند خطم الجبل ، ليرى جند الله تعالى وجند رسوله ، ففعل[٤]، وراحت القبائل تتوالى عليه قبيلة إثر الأخرى ، وكان كلما

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٢ / ١٦٥ .
(٢) ابن عبد البر : الدرر. ص٢١٦ .
(٣) سيرة ابن هشام٤ / ٣٣ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ٢ / ١٦٥ .

رأى قبيلة قال : ما هذا يا أبا الفضل ؟ فيسميها له ، حتى مرت عليه كتيبة خضراء ، لا يرى منها غير الحدق فاشتد عجبه وقال : والله ما رأيت مثل هذا قط . فقال العباس : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فقال : لقد أصبح لابن أخيك اليوم ملك ، قال العباس : إن الذى ترى ليس هو الملك ، وإنما هو النبوة ، قال أبو سفيان : نعم إذن[1] .

ونعود إلى النبى ﷺ ، ونقول : إنه لما عزم على دخول مكة صف جنوده وعبأ كتائبه ، ووزع الألوية والرايات على أصحابها ، وجعل الزبير بن العوام على إحدى مجنبتيه ، وجعل خالد بن الوليد على المجنبة الأخرى ، وبقى هو فى القلب ، وأرسل أبا عبيدة بن الجراح طليعة له[2] ، وأمر مناديه أن يهتف فى أنحاء مكة : من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن[3] ، وكان أحدهما يقيم فى أسفل مكة وكان الآخر يقيم فى أعلاها . ولبس عمامة سوداء ودخل مكة مومىء الرأس مطرق الطرف ، يكاد عثنونه يمس وسط رحله[4] ، وهو يتلو سورة الفتح[5] ، وكان قد شدد على قواده أن يتجنبوا الحرب والضرب ، غير أن سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ،

---

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ١٧٩ .
(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) عيون الأثر ٢ / ١٨٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ٢ / ١٦٧ .
(٥) سيرة ابن كثير ٢ / ١٨١ ، ١٨٢ .

قد جمعوا رجالا من قريش واعترضوا طريق خالد بن الوليد، فقاتلهم خالد حتى جرعهم أكواب الهزيمة [1]، وكان حماس بن قيس قد أعد سلاحا للمشاركة في القتال، فحذرته زوجه وقالت له: إن محمدا وأصحابه لا يقف في طريقهم أحد، فقال لها مازحاً: لأجعلن بعضهم خدما لك اليوم.

ولما دارت رحى الحرب على قريش وفر حماس فيمن فرَّ إلى داره، وأغلق بابه عليه، أخذت زوجه تلومه فأنشد يقول [2]:

إنك لو شهدت يوم الخندمة
إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة
واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضربا فلا يسمع إلا غمغمة [3]
لهم نهيت خلفنا وهمهمة
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وواضح من هذه الأرجوزة، أن المعركة التي دارت رحاها بين خالد

---

(1) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٧.
(2) ابن الأثير: الكامل ٢ / ١٦٧.
(3) سيرة ابن هشام ٤ / ٣٨.

وقريش قد كانت فى الخندمة، وأن هزيمة المشركين، قد كانت فيها شديدة [1]، وأن صفوان، وعكرمة، وغيرهما من الصناديد، قد انهزموا هزيمة قبيحة، وأن المسلمين قد تعقبوهم يفلقون منهم الرءوس، ويزهقهون النفوس، وقد بلغ الخبر رسول الله ﷺ فأحزنه، وقال اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد [2].

وقد تسأل: وكيف اجترأ هذا القائد على مخالفة النبى صلوات الله عليه فسفك الدماء، وقد نهى عن الحرب والضرب [3]؟ والجواب: لقد كان فى حالة دفاع عن نفسه وعن جنده، فإن صفوان، وسهيلا، وعكرمة، قد أشعلوا نار المعركة، وأجبروا خالداً وجنوده على المشاركة فيها.

وعلى كل حال فإن النبى عليه الصلاة والسلام قد نهى عن القتال كما سبق، وكان يعمل جاهداً على إغلاق الأبواب دونه، ومن ذلك أنه قد بلغه أن سعد بن عبادة وكانت معه راية الأنصار قد كان يقول وهو يرتجز:

اليوم يوم الملحمة
اليوم تستحل الحرمة

فقال: كذب سعد، بل اليوم تعظم الكعبة وتكسى، وأمر فأخذت

(١) عيون الأثر ٢ / ١٩١، ١٩٢. (٢) سيرة ابن كثير ٢ / ١٨٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٢ / ١٦٧، ١٦٨.

الراية منه، ودفعت إلى ولده قيس، وذلك حتى لا يجد الرجل ولا قومه من الأنصار شيئا فى أنفسهم، فقد أخذت الراية من أنصارى ودفعت إلى أنصارى وليس هذا وحسب، ولكن هذا الأنصارى هو ابن سعد نفسه[1].

ومهما يكن من شيء فإن النبى عليه الصلاة والسلام توجه إلى البيت الحرام، فكسر ما كان حوله من الأصنام، ثم استلم الركن، وطاف سبعاً حول الكعبة، وأمر فحمل إليه مفتاحها[2]، وقبل أن يدخلها أخرجت صور الأنبياء التى كانت معلقة فى جوفها، وكانت فيها صور لإبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام، فلما رآها تغيروجهه وقال: والله ما استقسم إبراهيم بالأزلام قط[3]، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أمر بلالاً أن يؤذن على سطح الكعبة، ففعل، فقال فريق من المشركين: لقد أحسن الله إلى آبائنا إذ لم يعيشوا إلى هذا الزمن ويروا هذا العبد وهو يقول ما يقول[4].

ولما أتم صلوات الله عليه فتح مكة، ونشر راية الإسلام على ربوعها، رقى المنبر وخطب الناس، فقال: [أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب[5] ﴿ يـا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبـا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[6]،

---

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ١٨٤.
(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ٤٠.
(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ١٩٠.
(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٤١، ٤٢.
(٥) عيون الأثر ٢ / ١٩٩.
(٦) سورة الحجرات. الآية: ١٣.

يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم، قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: لا أقول لكم إلا ما قاله يوسف لإخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء] [1].

وهكذا أصدر صلوات الله عليه عفوه العام عمن أخرجوه وقاتلوه، وحرصوا على إطفاء دينه، وتقويض دولته، ولم يجدوا طريقا لبلوغ هذا الهدف إلا سلكوه، ولا بابا لتحقيق هذه الغاية إلا ولجوه.

ولم يكتف صلوات الله عليه بتأمين هؤلاء المشركين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأطفالهم، وإنما أمن البلد الحرام، والبيت الحرام كذلك، فقال بعد ما وقع الاعتداء من خزاعة على رجل من الديل فقتلته: [أيها الناس إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد شجرا، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فيقول: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها الأمس، فليبلغ الشاهد الغائب] [2].

وجاء العباس بن عبدالمطلب، وطلب من النبى صلوات الله عليه، أن يجمع لبنى هاشم بين السقاية والرفادة والحجابة، وكانت هذه الأخيرة فى بنى عبدالدار، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يجيب

(1) سيرة ابن هشام ٤ / ٤١.
(2) سيرة ابن كثير ٢ / ١٩٣.

العباس إلى ما سأل، واستدعى عثمان بن طلحة، وكان صاحب مفتاح الكعبة، ودفع إليه المفتاح، وقال ما معناه: خذوها يابنى عبدالدار، فهى حلال لكم إلى يوم القيامة [1]. وقال كلمته الخالدة: اليوم يوم بر ووفاء [2].

فأنت ترى أنه عليه الصلاة والسلام، قد أرسى فى فتحه مكة، ووضعه يده على الكعبة، الكثير من المثل العليا، والقيم الفاضلة، فأطلق قريشاً مع القدرة عليها، وعفا عنها مع التمكن من البطش بها والانتقام منها [3]، وأبى أن يأخذ الحجابة من بنى عبد الدار، ويجعلها فى بنى هاشم، مع ما كان لهم من المواقف النبيلة فى حمايته، والدفاع عن دينه [4].

وهكذا دخلت مكة فى الإسلام، وقد كانت من قبل قلعة للأوثان والأصنام، ولم يدعها رسول الله ﷺ هو وأصحابه قافلين إلى المدينة، إلا بعد أن دبر أمورها، ونظم شئونها، وأمر عليها عتاب بن أسيد، وكان شاباً فى العشرين ليأخذها بحزم، ويسوسها بقوة، ويطبق فى أهلها تعاليم الإسلام ومبادئه.

***

(١) مغازى الواقدى ٢ / ٨٣٨.
(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ٤١.
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٤١.
(٤) مغازى الواقدى ٢ / ٨٣٨.

مكة بعد الفتح :

وفي العام التاسع أمر النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر على الحج[1]، فغادر المدينة ومعه ثلاثمائة من المسلمين، وعشرون بدنة أهداها صلوات الله وسلامه عليه إلى الكعبة، وخمس بدن أهداهن أبو بكر نفسه[2].

ولم يكد الصديق يغادر المدينة، حتى نزلت على رسول الله ﷺ الآيات من سورة براءة[3]، لأنها تحمل في طياتها أوامر وأحكاماً لا يجوز أن يبلغها إلا النبي عليه الصلاة والسلام، أو من ينيبه عنه من أهل بيته، فإنه صلوات الله عليه، أمر علياً أن يتوجه إلى مكة، ويقرأ هذه الآيات على الناس في منى[4]، وامتثل كرم الله وجهه للأمر، ومضى حتى وافى أبا بكر في العرج، ولما رآه الصديق رضي الله عنه سأله: أمير أنت أم مأمور؟ قال: بل مأمور، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام حملني الآيات الأولى من سورة براءة، وأمرني أن أقرأها على الناس يوم الحج الأكبر[5]، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فأنت وذاك.

ولما حان يوم الحج الأكبر، راح على كرم الله وجهه يمشي بين الخيام في منى، ويقول :

---

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٩٦.
(٢) عيون الأثر ٤ / ٢٧٥.
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ١٣٩.
(٤) الأثير : الكامل ٢ / ١٩٩.
(٥) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٩٦.

أيها الناس، ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له عهد فهو إلى مدته [1] ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين... ﴾ [2].

وواضح من هذه الآية وما بعدها من الآيات، التى نزلت فى هذا الشأن، أن مكة قد أصبحت معقل الإيمان، وحصن التوحيد، وقلعة من قلاع الحنفية السمحة، ومن ثم فهى محظورة على المشركين، لا يحجون إليها، ولا يطوفون حول البيت الحرام فيها، ومن كان له منهم عهد فهو إلى مدته [3]، وقد ضرب الله لهم هدنة، أربعة أشهر، يتنقلون فيها كما يشاءون، ويسيرون حسبما يحبون، وبعد هذه الهدنة لا عهد لهم ولا ذمة، فيقتلون حيثما كانوا، وتضرب أعناقهم أينما ذهبوا، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فلهم ما لغيرهم من المسلمين، وعليهم ما عليهم [4].

ومن المستشرقين من أنكر هذه الإجراءات، وزعم أنها تنافى الحرية، وتتعارض وإياها، وهذا كلام لا أساس له ولا حجة تدعمه وتشد أزره، فإن المشركين قد كانوا ولا يزالون أعداء الإسلام وخصوم دولته، وإن إلقاء الحبل على غاربه لهم فى التقلب فى بلاد الإسلام والسير فى جزء من أجزائها، حتى البلد الحرام،

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ١٤١.
(٢) سورة التوبة. الآيتان: ١، ٢.
(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ٢٩٧.
(٤) عيون الأثر ٢ / ٢٧٦.

والبيت الحرام، يتيح الفرصة لهؤلاء الأعداء للكيد لهذا الدين والنيل منه، والعمل على زعزعة أركانه، وتقويض بنيانه، ولا سبيل إلى الخلاص من شرهم والنجاة من مكرهم إلا بإقصائهم عن رحاب هذا الدين والديار، التي ترفرف عليها ألويته وراياته.

ومن الإنصاف أن نلفت النظر إلى أن هذه الإجراءات لم ترع حقوق المسلمين وحسب، وإنما راعت حقوق المشركين كذلك، فهى لم تحرم عليهم الحج على الفور، وإنما حرمته بعد العام الذى صدرت فيه [1]، وهى لم تأمر بقتالهم وقتلهم إلا بعد أربعة أشهر [2]، وهى الهدنة التى حددتها لانسحابهم وانتقالهم إلى ديارهم، وهى لم تبلغ العهود التى عقدتها وإياهم، وإنما أبقت كلا منهما إلى المدة المضروبة له [3]، وهى لم تغلق أبواب الأمل فى وجوههم، وإنما أصدرت العفو العام عن كل من دخل فى الإسلام منهم، ولم تجعل بينهم وبين من سبقوهم إليه فرقا، وإنما جعلتهم سواء، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم [4].

وصفوة القول: أن الإجراءات التى اتخذها الإسلام حيال المشركين، قد كانت ضرورية، ولا سبيل إلى إرجائها ولا إلى التخفيف منها، وأنها على الرغم مما يقوله المغرضون فيها قد أنصفت المشركين، ولم تأخذهم على غرة [5]، ولو أنها لم تفعل

---

(١) سيرة ابن هشام٤ / ١٤١.
(٢) ابن عبد البر: الدرر ص٢٥٢.
(٣) سيرة ابن كثير٢ / ٢٩٧.
(٤) سيرة ابن هشام٤ / ١٤٠.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٢ / ١٩٩.

لما كان لأحد الاعتراض عليها، ولا النيل من الإسلام من أجلها، لأن عداوة المشركين للإسلام كانت ظاهرة، وموقفهم منه كان من الجور والبغى بحيث لا يحتاج إلى دليل.

النبى يحج لأول مرة فى الإسلام:

ونتنقل إلى أكبر حدث وقع فى ساحة البلد الحرام منذ بنائه حتى الآن، وهو حجة الوداع، أو حجة الإسلام وكانت فى العام العاشر من هجرته عليه الصلاة والسلام [1].

ولا خلاف بين الرواة والمؤرخين فى أن النبى صلوات الله عليه لم يحج غير هذه المرة، منذ هبط عليه الوحى فى حراء [2]، وإنما اعتمر أكثر من مرة، ومن أجل هذا فإنه صلوات الله عليه، قد تجهز للخروج إلى مكة، ودعا أصحابه إلى أن يتجهزوا كذلك.

وقبل انتهاء ذى القعدة بخمسة أيام [3]، استخلف صلوات الله عليه أبا دجانة الساعدى على المدينة [4]، وحمل أزواجه كلهن فى الهوادج [5]، ولبس ثوبين صحاريين، بعد أن اغتسل وتطيب وترجل، وولى وجهه ومن خلفه أصحابه حتى أتى ذى الحليفة، فصلى بها الظهر ركعتين، وأشعر هديه وقلده، واستوى على ناقته، وأحرم بالحج مفرداً [6]، ومن الرواة من يقول:

---

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ٣٦٢.
(٢) عيون الأثر ٢ / ٣٤١.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٢ / ٢٠٥.
(٤) ابن عبد البر: الدرر ص ٢٥٩.
(٥) سيرة ابن كثير ٢ / ٣٦٢.
(٦) ابن عبد البر: الدرر ص ٢٦١.

إنه قرن بين الحج والعمرة [١]. تبقى رواية ثالثة وهي أنه دخل مكة متمتعاً بعمرة، ثم أضاف إليها حجة [٢]. ومضى ينتقل من منزل إلى منزل، ويؤم أصحابه في مساجد بناها الناس وعرفوا مواضعها. وقد قطع الطريق من المدينة إلى مرِّ الظهران في يومين [٣]، وهما السبت والأحد، وبلغ هذا الوادي يوم الإثنين، وبات في سرف [٤]، ولما أصبح اغتسل وولى وجهه نحو مكة فدخلها من أعلاها حتى انتهى إلى باب بني شيبة، فرفع يديه وقال: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً [٥]. وطاف صلوات الله عليه حول البيت سبعاً، رمل في ثلاثة منها، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم سعى على راحلته بين الصفا والمروة [٦]. وبعد صلاة الظهر من اليوم الذي يسبق يوم التروية، خطب الناس فعلمهم مناسك الحج وشعائره، وأبان لهم أن عدد الشهور اثنا عشر [٧] شهراً منها أربعة حرم، وهي رجب الذي بين جمادى وشعبان، وذوالقعدة وذو الحجة، والمحرم [٨]، وأن النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله [٩]، وكان الناس يسألونه فيما يشاءون، وكان يجيبهم باسم الثغر منشرح الصدر.

---

(١) عيون الأثر ٢ / ٣٤١.
(٢) سيرة ابن كثير ٢ / ٣٧٣.
(٣) سيرة ابن كثير ٢ / ٣٩٥، ٣٩٦.
(٤) عيون الأثر ٢ / ٣٤٢.
(٥) سيرة ابن كثير ٢ / ٣٩٧.
(٦) عيون الأثر ٢ / ٣٤٢، ٣٤٣.
(٧) ابن الأثير :الكامل ٢ / ٢٠٦.
(٨) سيرة ابن هشام ٤ / ١٨٥.
(٩) سيرة ابن كثير ٢ / ٤٤٠.

وفي يوم التروية خرج إلى منى فبات فيها، ثم غدا إلى عرفات[1]، فوقف بالهضاب وقال: كل عرفة موقف إلا بطن عرنة، وراح يدعو ربه وهو مستوى على راحلته، فلما غربت الشمس دفع فجعل يسير العنق فإذا وجد فجوة نص، حتى جاء المزدلفة[2] فصلى المغرب والعشاء، وأذن لكل منهما وأقام، وبقى فيها حتى إذا جاء السحر، أمر أهل الضعف من الذرارى والنساء، أن يأتوا من قبل حطمة الناس.

ولما بزغ الفجر صلى صلاة الصبح، وركب راحلته، ووقف على قزح وقال: كل المزدلفة موقف إلا بطن محسر، وقبل طلوع الشمس دفع صلوات الله عليه حتى إذا أتى محسراً وضع، ولم يزل يلبى حتى رمى جمرة العقبة، ثم نحر هديه، وكان مائة ناقة، وحلق رأسه، وأخذ من شاربه وعارضيه، وقلم أظافره، وأمر فدفن الشعر والأظافر معاً[3]، ثم لبس قميصه وتطيب وأمر مناديه فنادى: إنها أيام أكل وشرب وباءة، وطلب أن يجمعوا له مضغة من كل ناقة أهداها إلى الكعبة، وأن تسلق في إناء، فلما قدمت إليه أكل من اللحم وشرب من المرق، وشاركه الطعام والشراب صهره وابن عمه على كرم الله وجهه[4].

وفي يوم النحر، وفي يوم الحج الأكبر، خطب صلوات الله عليه

---

(١) عيون الأثر: ٢ / ٣٥٠.
(٢) سيرة ابن كثير: ٢ / ٤٢٣: ٤٢٥.
(٣) سيرة ابن كثير: ٢ / ٤٢٥: ٤٢٩.
(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ٣٤٨.

في عشرات الألوف الذين حضروا الموسم، خطبته الجامعة، التي حرم فيها الدماء والأموال والربا، وكل ما كان سائداً في الجاهلية، وأبطله الإسلام، وحرم كذلك البلد الحرام، والبيت الحرام، وأعلن أن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، وأوصى بالنساء والرقيق، وبين أنه قد ترك في أمته ما إن تمسكوا به لن يضلوا، كتاب الله وسنته [1]، وكان كلما أحق حقـاً أو أبطل باطلاً رفع يديه إلى السماء، وقال: ألا هل بلغت. فتجيبه الألوف المؤلفة من حوله: اللهم نعم: فيقول: اللهم اشهد [2].

ولأنه عليه الصلاة والسلام، قد جمع في خطبته هذه حقوق الإنسان، فإنها تعتبر أول إعلان صدر في الدنيا في هذه الحقوق.

وحدث آخر أكبر وأخطر، وهو اكتمال الإسلام وإتمام مبادئه وتعاليمه، وقد سجل القرآن الكريم ذلك في يوم الحج الأكبر أيضـاً، فقد نزل على فؤاده صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [3].

وصفوة القول: أن حجة الوداع هذه، أو حجة الإسلام، قد كانت أكبر حدث وقع في البلد الحرام والبيت الحرام ففيها حج رسول الله ﷺ الحجة الأولى والأخيرة في الإسلام [4]، وفيها صدر الإعلان

(١) ابن الأثير: الكامل ٢ / ٢٠٦.
(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ١٨٦.
(٣) سورة المائدة. الآية: ٣.
(٤) عيون الأثر ٢ / ٣٤١.

الأول لحقوق الإنسان، وفيها أكمل الله دينه، وأتم نعمته، ورضى الإسلام دينا لعباده.

ولأن هذا كله يشير أو يلمح إلى أن أجله عليه الصلاة والسلام قد دنا، وأن حياته على هذه الأرض قد ذهبت أو كادت، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يعش بعد عودته إلى المدينة سوى شهور معدودة، حتى صعد إلى الرفيق الأعلى، بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة الموضوعة على عاتقه.

والذى يستعرض ما سطرناه عن البلد الحرام، والبيت الحرام، بعد نزول الإسلام، يلاحظ أن هذا الدين الحنيف قد عظمهما وقدسهما.

ودعا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى قصدهما، وأداء المناسك والشعائر فيهما [1]، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد أعلن فى أكثر من مكان وأكثر من زمان أن الله تعالى قد حرم مكة منذ خلق السموات والأرض، فهى حرام إلى يوم القيامة، لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها ولا يعتدى فيها على نفس ولا على مال، وأن الله عزوجل قد أباحها له وحده ساعة، ثم عادت حرمتها كما كانت [2].

وقد أبطل الإسلام ما أضافه العرب إلى حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من البدع والخرافات، فسوى بين قريش وغيرها من

(١) تاريخ الطبرى ١ / ٢٦٠.　　(٢) ابن عبد البر: الدرر. ص٢١٧.

سائر الناس فى أعمال الحج والعمرة، وأبطل النسيء الذى كان العرب يضعونه فى الجاهلية، والذى كانوا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، وذلك أنهم كانوا إذا تعطشوا للغارة، وتاقت نفوسهم إلى الحرب والضرب، أحلوا المحرم محل صفر، وصفر محل المحرم، ثم عادوا وجعلوا كلا منهما كما كان [1].

والأمر كذلك بالنسبة لما كان يحمله الحجيج معهم إلى مكة من الطعام والثياب، فإن قريشاً قد اعتبرت هذا وذاك بخس، وأمرت الحجيج أن يتخففوا منهما، ويضعوهما خارج الحرم، ويشتروا ما يشاءون من تجار قريش أو يطوفوا مجردين حول البيت، لا فرق بين الرجال منهم والنساء.

وقد أسلفنا أن النبى عليه الصلاة والسلام أمر علياً فنادى فى منى يوم الحج الأكبر من العام التاسع للهجرة، ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له عهد فهو إلى مدته [2]، وهكذا نقى الإسلام الحج والعمرة من الخرافات، وطهرهما من الضلالات، وسوى فى أعمالهما بين الناس كافة.

بين المصريين والحجاز :

وقبل أن نغادر هذا العهد الطاهر، وهذه الحياة الزكية النقية، يحسن بنا أن نناقش قضية كنا قد أسلفنا الحديث عن شطر منها

(١) سيرة ابن كثير ٢ / ٤٤٠.
(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ١٤١.

وهى العلاقة بين المصريين والبيت الحرام، وموجز هذه القضية هو أن المصريين قد هاجروا إلى أرض الحجاز مرتين، أولاهما عندما شبت الثورة فى وجه أخناتون ورجاله، من أصحاب عقيدة التوحيد، فقد فرَّ بعضهم إلى هذه البلاد، وسموا أنفسهم جرهما، وبنوا الكعبة على غرار المعبد الذى كان لهم فى مدينة منف، وهى عاصمة مصر فى عهد الملك أخناتون [١].

وقد ناقشنا هذا الرأى وبينا أنه لا يثبت أمام النقد الهادف، والحوار القائم على أسس العلم وقوانين المنطق.

والهجرة الثانية: وقد سمى أصحابها أنفسهم كنانة، ومعناها فى لغتهم مصر [٢]، وقد أقامت كنانة هذه فى أرض الحجاز وتناسلت، وكانت منها قريش التى أنجبت هى الأخرى مناف، وهو أحد أبناء قصى، وقد اشتق له أبوه هذا الاسم من منف، وهى المدينة المصرية القديمة [٣]. وقد ساق أصحاب هذا الرأى على صحة ما يدعونه هذه الأدلة:

١ ـ أن كنانة كلمة غير عربية، ومعناها فى لغة الفراعنة: مصر [٤].

٢ ـ أن النبى ﷺ فخر فى أكثر من حديث بانتسابه إلى مناف وهذا اللفظ وإن كان اسماً لأحد أجداده، إلا أنه مشتق من منف وهى العاصمة المصرية القديمة [٥].

---

(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة ص ٣٢.
(٢) المرجع السابق ص ٢.
(٣) المرجع السابق ص٥.
(٤) المرجع السابق ص ٢.
(٥) المرجع السابق ص٥.

٣ ـ أن النبى ﷺ، قد أثنى على مصر وقال فيها : [استوصوا بأهل مصر خيراً فإن لهم رحماً ونسباً وصهراً]. وواضح أن المقصود بالرحم هو هاجر أم إسماعيل، وأن المقصود بالصهر هو تزوجه صلوات الله عليه من مارية أم ولده إبراهيم، يبقى النسب وهو الانتماء إلى مناف، حيث أنه ينتمى إلى قريش التى تنتمى هى الأخرى إلى كنانة، وهى الطائفة المصرية صاحبة الهجرة الثانية إلى بلاد العرب [١].

ولا جدال فى وهن هذه الأدلة وتهافتها، فإن كنانة ليست كلمة غير عربية كما يدعى أصحاب هذا الرأى، وإنما هى عربية فصيحة ومعناها : مجمع السهام، وفى هذا يقول الحجاج بن يوسف : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته وعجم عيدانها، فوجدنى أصلبها عوداً، وأمرها مكسراً [٢].

ومناف ليس هو الاسم الذى أطلقه قصى على ولده، وإنما الاسم الذى أطلقه عليه هو عبد مناف [٣]، وقد سئل قصى عن العلل التى من أجلها اختار لأبنائه أسماءهم. فقال : لقد أضفت أحدهم إلى نفسى، وأضفت الثانى إلى دارى، وأضفت الثالث والرابع إلى صنمى اللذين أعبدهما، وهما العزى ومناف [٤].

---

(١) د. سيد كريم : المرجع السابق ص ٥.
(٢) تاريخ الطبرى ٤ / ٢١١ ط. دار القلم. بيروت. لبنان.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٧٤.
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ٧٠.

وعلى هذا الأساس فإن الجد الثالث للنبى ﷺ ليس هو مناف وإنما هو عبد مناف، وليس مشتقاً من منف، وإنما هو اسم لصنم كان يعبده قصى وغيره [1]. ثم إن أصحاب هذا الرأى قد أضافوا مناف إلى الأحاديث التى تضمنت فخره عليه الصلاة والسلام بانتمائه إلى العرب وليس لهذا اللفظ وجود فى أى حديث منها.

يبقى ثناؤه عليه الصلاة والسلام على مصر، وقد دس أصحاب هذا الرأى لفظة النسب بين الرحم والصهر، فهى موضوعة ومختلقة لخدمة الهدف الذى يسعون إليه، والغاية التى يحرصون على إدراكها.

ثم إن هؤلاء الباحثين، لم يثبتوا رأيهم هذا من مصدر موثوق فيه، ولا أثر موجود فى أى متحف، ولا أى مقبرة من المقابر المصرية الكثيرة.

وصفوة القول: أن هذه القضية لا قيمة لها، لأنها لا تعتمد على مصدر مكتوب، ولا على أثر مرسوم، فضلاً عن مخالفتها الصارخة للقرآن الكريم، والمصادر العربية المتعددة.

وما أظن أن المثيرين لهذه القضية مطمئنون لما كتبوه حولها، وإنما القصد من خوضهم فيها ليعدو الإثارة والبلبلة، والتشكيك فى أمور ثابتة فى قلوب الناس وعقولهم، ليلبسوا عليهم دينهم، وليزعزعوا ما رسخ فى أعماق نفوسهم وأرواحهم.

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٧٠.



الفصل الخامس

البيت الحرام

فى عهدى

«الراشدين والأمويين»



مكة في عهد الراشدين :

ومهما يكن من شيء ، فإن الخلفاء الراشدين الأربعة ، الذين تولوا إدارة دولة الإسلام ، إثر وفاته عليه الصلاة والسلام ، قد نسجوا على منواله في تعظيم مكة ، وتكريم الكعبة ، فكانوا يحجون إليها في كل عام ، أو ينيبون عنهم غيرهم من ذوى التقوى وأولى العلم .

وكان الفاروق ـ رضى الله عنه ـ ينتهز فرصة موسم الحج ، واجتماع الناس فيه ، من شتى أنحاء بلاد الإسلام ، ومختلف بقاعها وأصقاعها ، للتحقيق فيما يكون بين الرعية والراعي ، وإنزال العقاب الرادع بمن يكون قد اتبع الهوى ، وخالف الحق ، وقدم مصالحه الشخصية وأمانيه الذاتية ، على المصالح العامة ، والآمال المشتركة .

ومن ذلك على سبيل المثال ، ما يرويه الثقاة ، من أن شاباً مصرياً ، سابق ابناً لعمرو بن العاص ، وكان يومئذ الأمير على البلاد ، فسبق المصرى ، فغضب ابن عمرو ، وأخذ يضرب الشاب المصرى ، ويقول له : أنا ابن الأكرمين[1] .

وبلغ الفاروق هذا الخبر ، فاستدعى المتسابقين ، ومعهما عمرو بن العاص ، وأمرهم أن يوافوه في موسم الحج ، وامتثل الثلاثة لأمر الخليفة ، وفي بلد الله الأمين وعلى مشهد من عشرات الألوف من المسلمين ، أمر عمر رضى الله عنه الشاب المصرى ، أن يقتص من

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٤ .

ابن الأمير عمرو ففعل [١]، ولما أخذ حقه قال له الخليفة وهو يشير إلى السوط الذى فى يديه : أجله على صلعة عمرو ، فأبى وقال : لقد أخذت حقى ، فوجه عمر رأسه إلى ابن العاص ، وقال له هذه الكلمة الخالدة : يا عمرو متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا [٢].

وهكذا جعل عمر - رضى الله عنه - من البلد الحرام ، والبيت الحرام ، حصنًا للحق ومنارًا للعدل ، ومشرقًا للحرية والنور .

ومضت قافلة الأيام يتلو بعضها بعضًا ، واستشهد عمر ، واشتعلت الثورة على عثمان ، وشدد الثائرون الحصار حول داره ، ومنعوا عنه الطعام والماء [٣] ، وخرجت عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - إلى مكة للحج ، ولما قضت مناسكها ، وأتمت شعائرها ، وقفلت راجعة إلى المدينة ، وفى الطريق نعى إليها عثمان - رضى الله عنه - وشرح لها ما جرى له على أيدى أعدائه ، حتى أراقوا دمه الحرام ، فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، وهو صائم يقرأ القرآن [٤] فهزها ما وقع ، وعادت راجعة إلى مكة ، تنشد الثأر له ، وتطلب القصاص من قتلته ، وانضم إليها بعد قليل ، طلحة والزبير ، وراحوا جميعًا يلعنون قتلة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٤ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٥ .
(٣) تاريخ اليعقوبى ٢ / ١٧٥ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ١٨٤ ، ١٨٥ .

عثمان، ويجمعون المال والسلاح لحربهم وعقابهم، حتى اشتعلت نار الثورة، وتضرم سعير الفتنة [1].

ولما حان وقت الخروج إلى البصرة، تحت قيادة طلحة والزبير وعائشة، راحت أمهات المؤمنين تحذرنها مما هي مقدمة عليه، وتؤكدن لها أن عملها هذا سوف يفرق كلمة المسلمين، ويمزق صفوفهم، ويجعلهم أحاديث، ويمزقهم كل ممزق، ولما لم تستجب أم المؤمنين - رضي الله عنها - للنصح، ولم تنقد للرشد، بكى أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وبكى الناس، ولم ير يوم كان أكثر بكاء من هذا اليوم [2].

وصدقت أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - فيما توقعنه، من خروج طلحة والزبير وعائشة، فيمن أطاعوهم إلى البصرة، فقد لمعت نذر الفتنة، وتناوحت رياح الانقسام، ودارت بين المسلمين بعضهم وبعض رحى معركة الجمل، التي قتل فيها منهم عشرة آلاف [3]، والتي كانت أول معركة يشرع المسلمون فيها سيوفهم، بعضهم على بعض، وثم أحداث أخرى كثيرة وقعت في مكة، وأصاب شواظها الكعبة.

***

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ٢٣٢ .
(٢) تاريخ الطبري ٤ / ٤٦٠ .
(٣) تاريخ الطبري ٤ / ٥٣٩ .

مكة في دولة بني أمية :

وأول ما يواجهنا من هذه الأحداث، حملة عمرو بن سعيد على مكة، في عهد يزيد بن معاوية، وخلاصة ما ذكره الرواة في هذه الحملة : هو أن عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - قد أغضبه قتل الحسين بن على، وآله ورجاله على ثرى كربلاء (١)، فدعا الناس إلى بيعته، وكان في مكة مستجيراً بها (٢)، فأحفظ ذلك يزيد في دمشق، وأقسم ألا يقبل بيعة ابن الزبير، إلا في برنس وجامعة، وأرسل إليه في مكة وفدا لمفاوضته، ومعهم برنس من خز، وجامعة من فضة (٣) وقد أخفقت المفاوضات بين الوفد، وابن الزبير، لما في قبوله الذهاب إلى دمشق، في البرنس (٤) والجامعة من الذل، الذى لا يرضى مثله (٥)، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن ابن الزبير لا يأمن غدر يزيد، إذا هو صدقه، ومشى إليه في عاصمة ملكه (٦).

وأمام هذا الإخفاق، كتب يزيد إلى عمرو بن سعيد، وكان والياً له على المدينة، أن يرسل حملة إلى مكة لتأديب ابن الزبير، وإرغامه على تنفيذ إرادة الخليفة وعلى الفور حشد عمرو بن سعيد جيشاً، وأسند قيادته إلى عمرو بن الزبير (وكان يومئذ على شرطته) وأنس بن عامر، وكان من أخلص جنده.

وعارض مروان هذه الحملة، وقال : إن عبد الله بن الزبير

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٤٣.
(٢) تاريخ الطبرى ٥ / ٤٧٥.
(٣) تاريخ الطبرى ٥ / ٤٧٦.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٤٧.
(٥) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ١٣١.
(٦) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٤٧.

رجل لجوج، وإنه شيخ قد أشرف على الموت، ولو أن الأمير تركه لمات حتف أنفه، وجاء أحد شيوخ الصحابة، وحذر ابن سعيد من غزو مكة، وأسمعه بعض ما روى عن النبى صلوات الله عليه فى حرمتها، غير أن الرجل لم يكن لديه استعداد للمناقشة، فتركه هذا الصحابى الجليل ومضى لسبيله.

وسار الجنود، ولما انتهوا إلى ذى الطول، حمل عليهم محمد بن صفوان، فهزم الفريق الذى يقوده أنس بن عامر، ومضى الفريق الثانى، وهو تحت قيادة عمرو بن الزبير، حتى دخل مكة، وطلب من أخيه عبدالله أن يبر قسم الخليفة ويخرج إليه، لمبايعته فى البرنس والجامعة، وقد كان عبدالله أشد ذكاء من أخيه عمرو، فراوغه حتى قبض عليه، وألقاه فى السجن، وراح يضربه حتى مات تحت السياط[1]، وهكذا أخفقت حملة عمرو بن سعيد، ولم تحقق الهدف الذى حشدت من أجله.

وعلى الرغم من أن المؤرخين، لم يحددوا الزمن الذى كانت فيه هذه الحملة، إلا أن الذى يدرس الظروف التى واكبت عزل الوليد، وتولى عمرو بن سعيد أعنة الأمور فى المدينة المنورة، لا يشك فى أن هذه الحملة كانت فى العام الحادى والستين للهجرة.

وحدث آخر لا سبيل إلى إغفاله، أو إلى غض الطرف عنه، وهو الحملة الثانية على مكة فى عهد يزيد بن معاوية.

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢ / ٢٦٤.

وموجز ما روى حولها هو أن أهل المدينة ثاروا على يزيد، ونقضوا بيعته، وحاصروا الأمويين، ثم أخرجوهم[1] بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق، ألا يبغونهم غائلة، ولا يدلوا على عورة.

وطار الخبر إلى الخليفة فى دمشق، فحشد جيشا قوامه اثنا عشر ألفا، وأمر عليه مسلم بن عقبة المرى[2]، وألقى على عاتقه مهمتين، أولهما: إطفاء الفتنة فى المدينة، والثانية: التوجه إلى مكة وإرغام ابن الزبير على البيعة، وقد أنجز مسلم المهمة الأولى، وتوجه إلى مكة لإنجاز الثانية، وعند المشلل وافاه أجله[3]، وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه، دعا الحصين بن نمير السكونى وقال له: يا برذعة الحمار، والله لولا أن أمير المؤمنين أوصانى أن آمرك ما أمرتك، وألقى أزمة القيادة بين يديه[4].

وقد نصب ابن نمير المجانيق على الجبال القريبة من الكعبة، وأمر جنوده فراحوا يرجمونها بالحجارة، وقد احترقت الكعبة نتيجة لهذا الرجم[5].

وقد اختلف المؤرخون حول السبب الذى من أجله شبت النار فى بيت الله الحرام، فذهب بعضهم إلى أن جند الشام كانوا يضربون البيت بالقطن والكتان المغموس فى النفط، بعد أن تشتعل فيه النار[6].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية٨ / ٢٣٧.
(٢) تاريخ اليعقوبى٢ / ٢٥١.
(٣) تاريخ اليعقوبى٢ / ٢٥١.
(٤) تاريخ اليعقوبى٢ / ٢٥١.
(٥) الأزرقى: أخبار مكة١ / ١٢٨.
(٦) الأزرقى: أخبار مكة١ / ١٢٩.

وذهب آخرون إلى أن الحريق لم يكن متعمداً، وإنما كان على سبيل الخطأ، فقد كان الجو شديد البرودة، وكان الناس يشعلون النار للاستدفاء، فطارت شرارة منها فمست أستار الكعبة فاحترقت[1].

وثم رواية ثانية، وهي أن الظلام قد كان حالكاً في إحدى الليالي، وأن جند ابن الزبير قد توقعوا الهجوم من العدو، وأشفقوا منه، فأشعلوا النار على كثب من الكعبة للاستضاءة، فحملت الريح منها شرارة فمست أستار الكعبة، فكان ما كان[2].

ويبدو لي أن الروايتين الأخريين هما المعقولتان والمقبولتان، فما كان المسلمون ليحرقوا الكعبة عامدين، وهي قبلتهم في الصلاة، وموضع التعظيم والتقديس، لا بالنسبة لهم فحسب، ولكن لذلك، ولأن آباءهم وأجدادهم قد كانوا يجلونها ويقدرونها، ويرون أنها بناء أبيهم إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وأمر آخر وهو أن العرب على اختلاف أهوائهم ومشاربهم، قد كانوا يمجدون الكعبة في الجاهلية، أفبعد أن دخلوا في الإسلام، وأشربت عقولهم تعاليمه ومبادئه يخربون هذا البيت بأيديهم، ويحرقونه بما يلقونه عليه من المواد الشديدة الاشتعال والاضطرام؟

لا أظن أن شيئاً من ذلك قد كان.

وهلك يزيد بن معاوية، وهلك ولده معاوية الثاني بعد أربعين يوماً

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٤٩٨.　(٢) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٢٩.



من وفاته[١]، وخرج الحكم من البيت السفياني، إلى البيت المرواني، وملك مروان بن الحكم ديار الإسلام، عشرة أشهر[٢]تولى الخلافة بعدها ولده عبد الملك، وقد استعرت الحرب بينه وبين ابن الزبير، وكان النصر يمشي في ركابه، فاستولى على العراق، ووطد دعائم سلطانه فيه، وكان هذا الإقليم أحد شطري دولة ابن الزبير، وكان الحجاز شطرها الثاني[٣].

ولما كان عبد الملك قد عزم على دحر ابن الزبير تماماً، فإنه بعث مولاه طارق بن عمرو إلى المدينة المنورة، فاستولى عليها، وبعث الحجاج بن يوسف في ألفي فارس إلى مكة لقتل ابن الزبير، أو إرغامه على البيعة[٤]، وكان السبب الذي من أجله آثر الحجاج على غيره، هو أنه قص عليه رؤيا رآها في منامه، قال فيها، يا أمير المؤمنين، لقد رأيت فيما يرى النائم أني قتلت ابن الزبير وسلخته، فابعثني إليه فإني قاتله[٥].

ونزل الحجاج مدينة الطائف، وكان رجلاً من أهلها، وراحت خيله وخيل ابن الزبير تتقاتل في سهل عرفة، وكانت الغلبة لخيل الحجاج، ولما وهن جند ابن الزبير، وضعفت مقاومتهم، بعث الحجاج إلى الخليفة في دمشق يستذنه في دخول الحرم ويطلب منه المدد.

(١) تاريخ الطبرى ٥ / ٥٠١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٢٥٤.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٢٥٨.
(٤) تاريخ الطبرى ٦ / ١٧٤.
(٥) تاريخ الطبرى ٦ / ١٧٤.

وقد أجابه الخليفة إلى ما طلب، فأذن له في اقتحام الحرم، وأرسل إلى مولاه طارق بن عمرو أن ينضم إليه في رجاله. ويقول الرواة: إن الحجاج وجنوده قد وقفوا بعرفة، ولم يتمكنوا من الطواف حول الكعبة، وإن ابن الزبير ومن معه قد طافوا حول البيت، ولم يتمكنوا من الوقوف بعرفة [١].

وقرر الحجاج الهجوم على مكة، وعقد الخناصر على قتال أهلها حتى يزعنوا للطاعة: ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة، فحشد جنده، وأسند إلى كل قائد المهمة الملقاة على عاتقه، ونصب مجانيقه الخمسة حول الحرم، وأمر رجاله أن يرموا أصحاب ابن الزبير بعد أن حاصرهم، ومنع الميرة والطعام عنهم [٢]، حتى ينفضوا عنه ويدخلوا في الأمان الذي قد أعلنه.

وكانت الرياح تعصف والرعود تقصف، وأطراف الجنود تكاد تتجمد من شدة البرد، ونزلت صاعقة من السماء فأحرقت اثني عشر رجلاً من جند أهل الشام، فسقط في أيديهم، وظنوا أن الله غاضب عليهم فأمسكوا عن الرمي، وكفوا عن الحرب والضرب [٣].

وزاد الطين بلة، أن أحد المجانيق الخمسة قد احترق، فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وخشي الحجاج على جنده أن

(١) تاريخ الطبري ٦ / ١٧٥. (٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٢٩.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٢٩.

تضعف فيهم روح القتال، فخطبهم خطبة أعلن فيها أنه رجل من تهامة، وأنه قد اعتاد على رؤية هذه الصواعق التى تصيب كل شيء، والتى أصابتهم يوماً، فإنها ستصيب أعداءهم يوماً آخر.

وكان الحظ إلى جانبه، فقد سقطت الصواعق فى الليلة التالية على رجال ابن الزبير، وأصابت منهم مثل ما أصابت من أهل الشام، فاطمأن جنود الحجاج، وزال القلق الذى كان قد أناخ على قلوبهم، وأمعنوا فى رمى أعدائهم حتى أوهنوهم وأضعفوهم[1]، واضطروهم إلى مفارقة ابن الزبير فوجاً إثر فوج، وجماعة بعد جماعة، حتى بلغ عدد الفارين من مكة عشرة آلاف رجل، وحتى أن حمزة وخبيب ابنى عبد الله بن الزبير، قد انضما إلى الحجاج بن يوسف[2].

ونظر ابن الزبير فرأى نفسه وحده، ورأى الذين لا يزالون معه من القلة بحيث لا يستطيعون الصبر على القتال ساعة، فدخل إلى أمه أسماء ذات النطاقين، وكانت قد هرمت وأحنى ظهرها الزمن، ودار بينهما هذا الحوار: يا أم خذلنى الناس حتى أهلى وولدى، ولم يبق معى غير اليسير الذين لم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما شئت من الدنيا فما رأيك[3]؟ فقالت: يا بنى أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية، وإن كنت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٢٩.
(٢) تاريخ الطبرى ٦ / ١٨٨.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٣٠.

تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين، وإلى كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن[١].

فقال: أخشى إن هم قتلوني أن يمثلوا بي. قالت: يا بني وهل يضر الشاة سلخها بعد أن تذبح؟ قال: لا، ودنا منها، وقبل رأسها، وقال هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإنني مقتول في يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم لله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عزوجل اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني[٢].

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا إن تقدمتني أو تقدمتك، ففي نفسي، اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك الله يا أماه خيراً، فلا تدعي الدعاء قبل وبعد: فقالت: لا أدعه أبدا لمن قتل على باطل، فلقد قتلت على حق

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦ / ١٨٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٣٠.

ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبد الله بن الزبير ثواب الصابرين الشاكرين [١] . ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه فاعتنقها ليودعها ، وكانت قد أضرت فى آخر عمرها فوجدته لابساً درعاً من حديد فقالت : يابنى ما هذا لباس من يريد الشهادة . فقال : يا أماه إنما لبست لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به . فقالت : لا يا بنى ، ولكن انزعه ، فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ، ويتشدد وهى تقول : شمر ثيابك . وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل . وجعلت تذكره بأبيه الزبير ، وجده أبى بكر الصديق ، وجدته صفية بنت عبد المطلب ، وخالته عائشة وزوج رسول الله ﷺ ، وترجيه القدوم عليهم إذا قتل شهيداً [٢] .

ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها .

وعلى الرغم من الحصار المضروب حول الحرم ، وعلى الرغم من نفاد الميرة والطعام ، فإن ابن الزبير كان يقاتل أعداءه قتالاً شديداً ، حتى لقد كان يهاجم وحده مئات الفرسان ، فيجفلون من بين يديه كما تجفل الغنم عندما يباغتها الذئب [٣] . وقد كان على كل باب من أبواب المسجد حراس له من أهل الشام ، فكان على الباب الذى يواجه باب الكعبة رجال من حمص ، وعلى باب بنى شيبة رجال من

(١) تاريخ الطبرى ٦ / ١٨٩ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٨ / ٣٣٠ .
(٣) تاريخ الطبرى ٦ / ١٩٠ .

أهل دمشق، وعلى باب الصفا حراس من أهل الأردن، وعلى باب بني جمح حراس من أهل فلسطين، وعلى باب بني سهم حراس من أهل قنسرين [1].

وكان ابن الزبير إذا هاجم باباً من هذه الأبواب تفرق عنه حراسه وولوا الأدبار لا يلوون على شيء [2]، وقد شاء الله أن يموت هذا البطل المغوار إثر آجورة أصابته أثناء القتال، وكانت قد انطلقت من أحد المجانيق المنصوبة حول مكة.

ويقول الرواة: إن ابن الزبير لما شدخته الآجورة، وأحس حرارة الدم وهو يسيل على وجهه، أنشد أبياتاً جاء فيها [3]:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ولما بلغ الحجاج نبأ وفاته هرع إليه ومعه طارق بن عمرو، فقال وهو ينظر إليه: ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين. قال: نعم هو أعذر لنا إنا محاصروه، وليس هو في حصن ولا خندق ولا منعة ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل موقف [4].

وقد حزنت مكة كلها لوفاة أبي خبيب، وهزها مصرع الشهامة والبطولة فيه، فاشتد نشيجها، وعظم بكاؤها، واضطر الحجاج إلى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٣١.
(٢) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٠.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٣٣١.
(٤) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٢.

أن يرقى أعواد المنبر ويخطب الناس هذه الخطبة :ياأهل مكة، ما إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، إن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب فى الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله، وألحد فى حرم الله [١]، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة، وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فلما عصاه أخرجه من الجنة، وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وإن ابن الزبير غيَّر كتاب الله، فقال عبدالله بن عمر :لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت، والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله، بل كان قواما به صواما، عاملاً بالحق.ولم يكف الحجاج بن يوسف قتل ابن الزبير، وإنما أمر فصلب منكساً، وقد مرَّ به عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فقال : رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صواماً قواماً، ثم قال : أما آن لهذا الراكب أن ينزل [٢].

ومن الرواة من يعزو هذه الكلمة إلى أمه أسماء، فإنها مرت به، فلعنت الحجاج، وأشارت إلى ولدها وقالت :أما آن لهذا الفارس أن يترجل.

ولما جاء الأمر من الخليفة فى دمشق بإنزاله عن خشبته، أخذته أمه، وكان قد تفسخ فغسلته عضواً عضواً، ثم وارته التراب [٣].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٨ / ٣٣١.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٨ / ٣٣٢.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٨ / ٣٤٤.

ومما يذكره التاريخ لهذا الصحابى الكريم ولا ينساه: هدمه البيت الحرام وبناءه له[1] كما كان على عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

والسبب فى هذا هو أن خالته عائشة رضى الله عنها حدثته أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لها يوماً: «لولا أن قومك حديث عهد بكفر لنقضت الكعبة، وأدخلت فيها الحجر، وجعلت لها باباً شرقياً، وباباً غربياً، ولألصقتها بالأرض، فإن قومك قصرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر، ولم يتمموها على قواعد إبراهيم، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا»[2].

وقد أثر كلام عائشة رضى الله عنها فى ابن أختها عبد الله، وراح ينتظر الفرصة المواتية لتحقيق هذا العمل العظيم، وقد لاحت هذه الفرصة عندما ضرب أهل الشام الكعبة فى عهد يزيد بن معاوية، وعلى يدى الحصين بن نمير السكونى، فإن الكعبة قد احترقت وانتقضت حجارتها[3].

ويقول الرواة: إن جماعة من رجال ابن الزبير، قد أتوا الحصين بن نمير، وحدثوه أن الكعبة قد اشتعلت فيها النار، وأن حجارتها قد أخذت فى الانتقاض، وسألوه أن يكف عن الحرب والضرب، وقالوا له ضمن ما قالوا: علام وجودك هنا وقد هلك يزيد،

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٣١ - ١٣٤.
(٢) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٣٤، ١٣٥.
(٣) تاريخ اليعقوبى ٢ / ٢٥١.

اذهب إلى الشام، وانظر ما ولده معاوية فاعلا. وراحوا يضغطون عليه حتى قبل نصيحتهم وأخذ جنده وولى وجهه شطر بلاده [١].

ولم يترك ابن الزبير هذه الفرصة تفلت من بين يديه، فقد راح هو ورجاله ينقضون أحجار الكعبة، حتى وصلوا إلى أسسها القديمة [٢] وكانوا عندما بدأوا فى هدمها قد خافوا واضطربوا، ولم يجترئوا على البدء فى البناء حتى اطمأنت قلوبهم، واستراحت نفوسهم، وأيقنوا أن ربهم غير غاضب عليهم [٣]. وكان ابن الزبير قد أسدل الستور بين الناس وبين العمال الذين يهدمون الكعبة ويعيدون بناءها، وأمر ابنه عباد، وجبير بن شيبة بن عثمان، أن يجعلوا الركن فى ثوب، فإذا دخلت الصلاة فحملاه وجعلاه في موضعه، فأنا أطيل الصلاة، فإذا فرغتم من وضع الركن فى موضعه فكبروا حتى أخفف صلاتى، ففعلا، ثم كبرا، فخفف ابن الزبير فى صلاته، وتسامع الناس أن الركن قد وضع فى مكانه، فلم يعجبهم ما وقع، وراحوا يتناقلون ما صنعه رسول الله ﷺ فى مثل هذا الأمر، وكيف أنه ألقى ثوبه على الأرض، وجعل الركن فى وسطه، ثم أمر كل بطن أن تأخذ بطرف منه، حتى إذا دنا من وضعه أخذه النبي ﷺ، ووضعه بيديه الشريفتين في مكانه [٤].

وكان الركن قد تصدع من الحريق بثلاث فرق، فانشظت منه

---

(١) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٣٣.
(٢) تاريخ الطبرى ٥ / ٦٢٢.
(٣) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٣٣.
(٤) الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٣٦.

شظية كانت عند بعض آل شيبة بعد ذلك بدهر طويل، فشده ابن الزبير بالفضة إلا تلك الشظية من أعلاه، وموضعها بيِّن أعلى الركن، وطول الركن ذراعان، قد أخذ عرض جدار الكعبة، ومؤخر الركن داخله في الجدار، مضرس على ثلاثة رءوس [١].

وكانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً في السماء، فلما أن بلغ ابن الزبير بالبناء ثمانية عشر ذراعاً قصرت بحال الزيادة التي زاد من الحجر فيها واستسمج ذلك، إذ صارت عريضة لا طول لها، فقال: قد كانت قبل قريش تسعة أذرع، حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً في السماء، فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى.

فبناها سبعة وعشرون ذراعا في السماء، وهي سبعة وعشرون مدماكاً، وعرض جدارها ذراعان، وجعل فيها ثلاث دعائم، وكانت قريش في الجاهلية قد جعلت فيها ست دعائم، وأرسل ابن الزبير إلى صنعاء، فأتي من رخام بها يقال له البلق، فجعله في الروزان في سقفها للضوء، وكان له ابن الزبير مصراعين [٢]، طولهما أحد عشر ذراعا من الأرض إلى منتهى أعلاهما، وجعل الباب الآخر الذي في ظهرها بإزائه على الشاذ روان الذي على الأساس مثله، وجعل ميزابها يسكب في الحجر، وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة، يصعد فيها إلى ظهرها [٣].

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٣٦. (٢) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٣٦ - ١٣٧.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ١٣٧.

فلما فرغ ابن الزبير من بناء الكعبة خلقها من داخلها وخارجها ، من أعلاها إلى أسفلها ، وكساها القباطى وقال : من كانت لى عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم ، فمن قدر أن ينحر بدنة فليفعل ، ومن لم يقدر على بدنة فليذبح شاة ، ومن لم يقدر فليتصدق بقدر طوله ، وخرج ماشياً ، وخرج الناس معه مشاة حتى اعتمروا من التنعيم شكراً لله سبحانه [1] .

ولم ير يوم كان أكثر عتقاً ولا أكثر بدنة منحورة ، ولا شاة مذبوحة ، ولا صدقة من ذلك اليوم . ونحر ابن الزبير مائة بدنة ، فلما طاف بالكعبة استلم الأركان الأربعة جميعاً وقال : إنما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربى لأن البيت لم يكن تاماً ، فلم يزل البيت على بناء ابن الزبير ، إذا طاف به الطائف استلم الأركان جميعاً ، ويدخل البيت من هذا الباب ويخرج من الباب الغربى ، وأبوابه لاصقة بالأرض ، حتى قتل ابن الزبير رحمه الله[2] .

ولما استقر الأمر فى مكة للحجاج بن يوسف ، وأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك بن مروان ، كتب الحجاج إلى الخليفة فى دمشق ، يخبره أن ابن الزبير قد هدم الكعبة وزاد فيها على بناء قريش ، وطلب منه أن يأذن له فى إزالة ما فعل ، فوافق الخليفة ، وحدد له ما ينبغى أن يفعله ، وهو أن يسد بابها الغربى الذى كان قد فتحه ابن الزبير ، ويهدم ما زاد فيها من الحجر ، وأن يكبسها به [3] ،

(١ ، ٢ ، ٣) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٣٧ .

فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مما يلى الحجر ، وبناها على أساس قريش الذى كانت استقصرت عليه، وكبسها بما هدم منها ، وسد الباب الذى فى ظهرها ، وترك سائرها لم يحرك منها شيئاً ، فكل شيء بناه ابن الزبير إلا الجدار الذى فى الحجر فإنه بناه الحجاج ، وسد الباب الذى فى ظهرها ، وما تحت عتبة الباب الشرقى وقدره أربعة أذرع وشبرا [١].

وكذلك الدرجة التى فى بطنها ، والبابان اللذان عليها ، فإن هذا كله من بناء الحجاج.

وبعد أن أتم الحجاج إعادة الكعبة إلى مثل ما كانت قريش قد بنتها عليه ، زار الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى الخليفة في دمشق ، فسأله إن كان أبو خبيب قد سمع من عائشة رضى الله عنها ما روته فى شأن البيت عن النبى ﷺ أم لا . فصدق الحارث أبا خبيب ، وروى الحديث للخليفة ، فنكس رأسه وراح ينكت الأرض بعود فى يده ، ويقول : وددت والله أنى تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك [٢].

ولما مات عبد الملك وتولى أزمة الخلافة ولده الوليد من بعده ، كتب إلى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسرى ، أن يضرب صفائح الذهب على بابى الكعبة وميزابها ، والأساطين التى فى بطنها ، والأركان فى جوفها ، وبعث إليه لإنجاز هذا كله

(١ ، ٢) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٣٨ .

ستة وثلاثين ألف دينار، وأمر فحمل الرخام من الشام ففرشت به الكعبة، وأزر جدرانها، وكان بهذا كله أول من رخم البيت وذهَّبه فى الإسلام [1].

وقد رأيت أن أقتصر من تاريخ البلد الحرام، والبيت الحرام على ما سطرته فى هذا الجزء، على أن أكمل القصة وأتم الحكاية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب إذا سنحت الفرصة، وواتت الظروف، وشاء المولى سبحانه أن يكون لى شرف كتابة قصة البيت الحرام، من البداية حتى النهاية، تبقى أشياء رأيت أن أضيفها لما لها من المنافع الجمة، والفوائد الكثيرة، منها: معرفة أسماء الكعبة، وعدد مرات بنائها، وكسوتها فى الجاهلية والإسلام، حتى نهاية الدولة الأموية، ومنها معرفة ما جاء عن صيام شهر رمضان فى مكة، ومقام النبى صلوات الله وسلامه عليه فيها، إلى آخر مما يحسن علمه ويقبح جهله، ولأن كثرت الأسماء تدل على شرف المسمى، وعلو شأنه، فإن الناس قد أطلقوا على الكعبة أسماء كثيرة منها بكة، وقادسا، وناذرا، والقرية القديمة، والبيت الحرام، والبيت العتيق [2].

والأمر كذلك بالنسبة لمكة فهى بكة، وأم القرى، وأم رحم، وهى صلاح وكوثى، والباسة، وهى البلد الحرام، والبلد الأمين، والحاطمة [3].

---

(1) الأزرقى: أخبار مكة 1 / 138 - 139.
(2) الأزرقى: أخبار مكة 1 / 188 - 189.
(3) الأزرقى: أخبار مكة 1 / 189 - 190.

ولكل اسم من الأسماء معنى يحوى فضيلة من فضائل هذين المعلمين اللذين شرفهما المولى سبحانه، وشرف الزائرين لهما، والمؤدين المناسك والشعائر فيهما.

وقد أسلفنا أن الكعبة قد هدمت، وأعيد بناؤها إحدى عشرة مرة، أولاها على يدى الملائكة، والثانية على يدى آدم، وكان بين البنائين ألفا سنة مما يعد الناس، والثالثة على يدى شيث، والرابعة بناية إبراهيم وإسماعيل، وقد كان بين هذه والبنية السابقة عليها الطوفان، وكان كما سجل القرآن الكريم في أيام نوح عليه الصلاة والسلام، والخامسة على أيدى العمالقة، والسادسة على أيدى جرهم، والسابعة على أيدى قصى، والثامنة على أيدى قريش، والتاسعة على يدى ابن الزبير، والعاشرة على يدى الحجاج بن يوسف [1].

تبقى البنية الحادية عشرة، وكانت على يدى السلطان مراد بن السلطان أحمد، أحد سلاطين آل عثمان [2]. وقد تناولنا في هذا الكتاب البنايات العشر الأولى، وتركنا الحادية عشرة حتى يحين وقتها، والحديث عنها في الجزء الثاني من هذا السفر.

وكما شرف المولى سبحانه بناة هذا البيت، ورافعى أسسه وقواعده، فقد شرف كذلك الذين كسوه، وأنفقوا أموالهم من أجل أن يكون وضيئاً جميلاً، تهفو النفوس إليه، وتتوق لمشاهدته، وملء العين منه.

(١، ٢) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٢٤١.

والرواة يذكرون أن أول من كسا الكعبة ، هو أسعد أبو كرب ، أحد تبابعة اليمن ، والسبب فى هذا : هو أن هذا الملك رأى فى منامه من يأمره أن يكسو البيت ، فكساه الخصف ، فتكررت هذه الرؤيا ، فكساه المعافر ، فتكررت للمرة الثالثة ، فكساه الملاء والوصائل [١] .

وبعد أبى كرب هذا كساها قصى بن كلاب ، وهو الجد الرابع للنبى ﷺ ، ثم إن قريشاً كانت تكسوها فى كل سنة ، وكانت تجمع الأموال لشراء الكسوة من القبائل ، حتى غير هذا التقليد ، أبو ربيعة ابن المغيرة ، فقد اقترح على قريش أن يقاسمها الكسوة ، فيهديها هو إلى الكعبة سَنة ، وتهديها هى إليها السَّنة الأخرى وهكذا [٢] .

وفى الإسلام كانت كسوة الكعبة إلى النبى ﷺ ، ثم إلى أبى بكر من بعده ، ثم إلى عمر فعثمان فعلى ، ثم إلى بنى أمية خليفة بعد خليفة [٣] .

وقد تسأل :وماذا كان نوع الكسوة التى كانت تقدم للكعبة ، وفى أى شهر ، وأى يوم كانت تسدل عليها ؟ .

والجواب : أنها كانت تكسى الأنطاع ، والخصف والقباطى ، والوصائل والحرير ، وكان اليوم الذى تكسى فيه يوم عاشوراء ،

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٦٥ - ١٦٦ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٦٧ .
(٣) الأزرقى : أخبار مكة ١ / ١٦٧ - ١٦٨ .

وفي هذا يقول النبي ﷺ : « هذا يوم عاشوراء، يوم تنقضي فيه السَّنة، وتستر فيه الكعبة، وترفع فيه الأعمال، ولم يكتب عليكم صيامه وأنا صائم، فمن أحب منكم أن يصوم فليصم »[1].

وكثيراً ما كانت الكعبة تكسى مرتين، أولاهما في اليوم الأول من شهر رجب، والثانية في العاشر من المحرم، وربما كسيت ثلاث مرات، إحداهما في رجب، والثانية يوم التروية، والثالثة يوم العاشر من المحرم[2].

ولم تكن الكسوة هي ما يقدم للكعبة وحسب، وإنما كان يقدم لها الهدى في الحج والعمرة، والطيب والخلوق، والبخور، في أيام كثيرة من السنة، وكانت عائشة رضي الله عنها، تفضل إهداء الطيب إلى الكعبة على إهداء الذهب[3].

ويقال إن عبد الله بن الزبير هو أول من قدم الخلوق للبيت العتيق[4].

ويبدو لي أن الكسوة قد كانت تقدم للكعبة منذ بنائها على عهد إبراهيم وإسماعيل، وأن تقديمها لها قد كان في كل سنة،

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ١٦٧، ١٦٨.
(٢) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ١٦٩، ١٧٠.
(٣) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ١٦٨ - ١٧١.
(٤) الأزرقي : أخبار مكة ١ / ١٦٨.

وأن نوعها قد كان راجعاً إلى الأموال التى كان ينفق عليها منها، فإذا كانت قليلة كانت الكسوة من الأنطاع أو الخصف، وإذا كانت كثيرة كانت من القباطى أو الديباج. وكان العرب فى جاهليتهم يكتبون القصائد المختارة على غلائل من الحرير بحروف من الذهب، ويعلقونها على الكعبة تعظيماً لها وتفخيماً لمبدعيها، وإشارة إلى أن العرب لم يكونوا بعيدين عن الابتكار والابتداع.

وكانت هذه القصائد تسمى المعلقات، وعلى الرغم من أن العرب قد نظموا آلاف القصائد، لكن التى علقوها منها قد كانت سبعاً أو عشراً، على أكثر تقدير، مما يدل على أن القصيدة لم تكن تعلق على الكعبة، إلا إذا بلغت أعلى طبقات الفصاحة والرقى اللفظى والمعنوى على السواء.

والذى يستعرض هذه المعلقات، والأزمنة التى عاش فيها أصحابها، يتبين له أنها كتبت قبل قليل من بعثة النبىﷺ، ونزول القرآن عليه، مما يدل على أن العرب كانوا « قبيل ظهور الإسلام، وتحدى القرآن لهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله » قد وصلوا فى الفصاحة والبلاغة إلى القمة التى ليست وراءها قمة، والأوج الذى ليس بعده أوج.

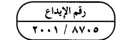
***

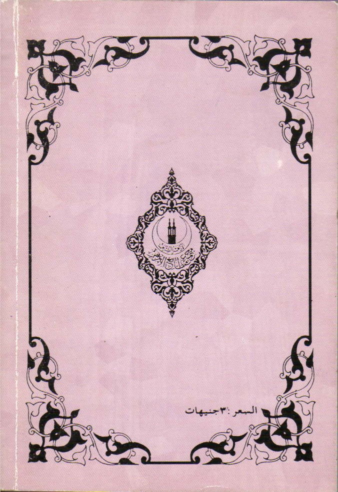
فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

*****




رقم الإيداع
٢٠٠١ / ٨٧٠٥


السعر :٣ جنيهات